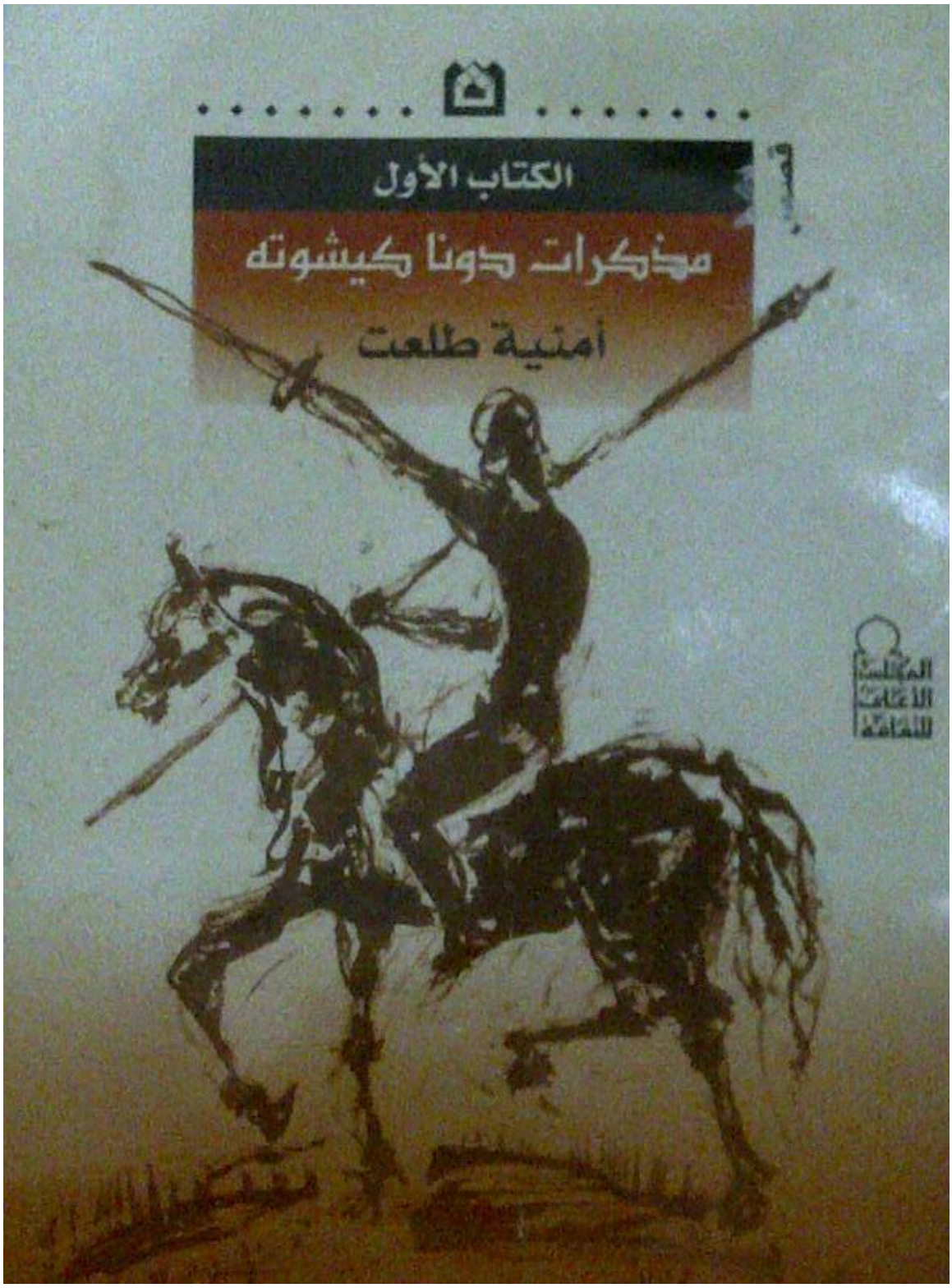

الكتاب الأول
مذكرات دونا كيشوته
أمنية طلعت

إهداء الطبعة الأولى

إلى عفاف عبد المنعم هلال... لك المجد وحدك يا أمي.
إلى يحيى مختار... دوماً معي وإلى النهاية.
إلى هالة طلعت ... تحملت خرافاتي منذ الطفولة ، ولا يزال أمامك الكثير لتتحمليه!
إلى ميريت ومحمد... ربما تعجبكما أمكما يوماً!

أمنية طلعت

إهداء الطبعة الثانية

إلى شهيد المسرح الناقد الأستاذ حازم شحاتة..

للأسف، صدرت رواية "طعم الأيام" بعد أن غيبك القدر ، وها هي المجموعة التي تنبأت لصاحبتها بالنجاح تصدر في طبعتها الثانية.

كنت أتمنى أن تظل لتشمل برعايتك كل الذين لا "ظهور" لهم. يواسيني أنني متأكدة أنك ترعاني ، وترعى كل المبدعين الحقيقيين، وأنت متوسد السحاب.
رحمك الله...

أمنية طلعت

مذكرات دونا كشوتة

9 يناير 1999

أم عراقية تلقي بأطفالها في نهر دجلة

"ألقت أم عراقية باثنين من أطفالها الثلاثة في نهر دجلة وسط بغداد، قبل أن تلقي بنفسها بعدهما.. اصطحبت الأم أطفالها الثلاثة، ووقفت على جسر، وألقت باثنين منهما في النهر واحداً بعد الآخر ، لكن الثالث فر وهو يبكي مستنجداً بالمارة، وبعد ذلك قفزت الأم في النهر غير أن بعض المارة نجحوا في إنقاذها وسلموها إلى الشرطة، التي فشلت في انتشال الطفلين الآخرين من المياه".

لم يلفت نظري في الجريدة اليومية سوى هذا الخبر ، الذي ألقي بعناية بين أخبار سريعة وقصيرة في العمود الثامن من الصفحة العاشرة... كان لزاماً علي أن أكمل قراءة الصحف تنفيذاً لتعليمات رئيسي في العمل، الذي تعجب من جيلي ، لأنني أكدت له عدم تحملي لفكرة المتابعة اليومية للصحف رغم عملي الصحفي!

لم أدر كيف أشرح له رغبتي في اعتزال الصحف اليومية ، التي ستؤدي بي حتماً إلى الهلاك ، وتحولني إلى مخلوق لا نفع منه، مما يترتب عليه عدم شعوره بالرضا عني ضمن العديد من مرءوسيه، الذين يثابرون على قراءة تلك الأوراق الماضغة لكل ما يحدث في العالم بكلمات تشبه لون حبرها.

سلة المهملات كانت المكان الأمثل للجريدة، حيث إن الالتزام لم يكن يوماً من خصالي الحميدة! ظللت أرقب السلة بما ابتلعته لتوها من على مكتبي، الذي اخترته بعناية على الجانب الأيمن من صالة التحرير، يحمي ظهري حائط ويجاورني آخر على اليسار .. وبذلك أكون قد أمنت ظهري وجانبي الأيسر، ليبقى الأيمن وما أمامي في خطر... للأسف لم يحدث يوماً أن أمنت حدودي الأربعة!

ملحوظة:
(ربما أنجح أحياناً في الهر وب، لكنني كثيراً ما أقع فريسة لكل ما يحيط بي.. من الصعب الاعتراف بالهزيمة والضعف أمام وجهي في المرآة عندما أطالعه كل صباح .. في النهاية أعترف، ثم أتناسى كل شيء، وأرتدي ملابس وقناعاً يصلحان لصباحاتنا المعتادة).

10 يناير 1999

مصابة أنا بداءين لا فكاك منهما ... تأتيني نوباتهما فجأة ودون مبررات، وتتمثل أعراضهما في طول بالقامة، وارتفاع للهامة، وانفتاح في شعبي الهوائية، فأملأ صدري بالهواء القاهري المدخن، دون أن أنتبه إلى أنه ليس أنسام اً من تلك التي اعتدتها في "الفشن"... بلدتي الصغيرة!

داهمتني تلك النوبة صباحاً ، ولم أفق منها إلا وأنا منغمسة في ورطة لم يكن من الممكن التراجع عنها ، ففي منزل أمي الآن تنام "صبيحة": امرأة عراقية حضرت إلى مقر جريدتي تبحث عن حل لمشكلتها، ظانة أن الجرائد تهتم بالدفاع عن المظلومين فعلاً !.. هربت من زوجها السكندري لتبحث عمن يعيدها إلى وطنها، بعد أن فاض كيلها من عذابات زوجها الذي هربت معه من ويلات الحصار، فحاصرها بدوره مستغلاً غربتها، عليّ الآن أن أتخلى عن عاداتي المسائية وأتجه فوراً إلى الفراش، خاصة بعد أن استهلك نعي زوجي في استجواباته الاستخباراتية عن صبيحة: "كيف قررت أن تساعدي امرأة غريبة؟!... من أدراك أنها ليست لصة ؟! وإن كانت صادقة فهل تتخيلين أن زوجها سيسمح لك بالتدخل؟ !... هل تتوهمين أنك بقدرات المرأة الخارقة ستعيدينها إلى وطنها بصحبة أولادها؟ !..."، وكان السؤال المهم بطبيعة الحال: "لماذا تبحثين ع ما يبدد نقودك في ما لا نفع فيه؟!".

السخافة كانت وسيلتي لأن يصمت ، كما هو الحال دوماً !... لا أنكر أنني أشعر بالتورط، لكن فات أوان التراجع.

20 يناير 1999

عشرة أيام مرت دون تدوين حرف في مذكراتي اليومية، بالطبع لم يكن هناك فرصة للإمساك بالقلم لأكتب شيئاً ، بل لم يكن في

نفسي مساحة للبوح بشيء، فقد كنت أختنق من تلك الورطة التي غرست نفسي فيها ... لكن اليوم فقط أستطيع أن أجلس هادئة بعض الشيء، وأتحدث معي قليلاً!

عشرة أيام أحاول ألا أتذكر منها شيئاً... أخيراً انتهت دوامة "صبيحة" في القنصلية العراقية، وانتهى معها الجدال والصوت العالي والبكاء ، وكل الأسلحة النسائية التي لا أجد غيرها دوماً لحل الصعاب التي تواجهني! وتلك التي أنحشر فيها دون إرادة كاملة ... اليوم فقط أستطيع أن أنام وألقي من وراء ظهري أخلاق النبلاء ، التي مزقت خلايا عقلي، وجعلتني أبدو لمن حولي "دونا كيشوتة"، هاربة من القرون الوسطى إلى نهايات القرن العشرين!

استقلت صبيحة صباحاً "القشاش" المتجه نحو الإسكندرية، بعد أن استطعت بحيلة ما ، لم أعد أتذكرها الآن! من انتزاع توقيع زوجها على تعهد يلزمه بعدم التعرض لها بالضرب أو الإهانة ، وأعاد إليها جواز سفرها الذي كان قد حرمها به حرية التنقل.

الآن يمكنني التقاط أنفاسي بهدوء، دون أن أكلف جهازي التنفسي عبء الدفاع عن شهامة الرجل المصري في قلب القنصلية العراقية!... اليوم يمكنني تقمص دور آخر غير "دونا كيشوتة " لأتنفس بارتياح ، وأعود لأتحمل انتهاكات الأماكن التي أجبر على الذهاب إليها، والبقاء داخل ثكناتها: (مقر عملي ومنزل زوجي)!

10يوليو 1999

"ما تطيب له النفس يضيع... ولا يبقى سوى الأوجاع"!

هكذا كان عندما التقيته ... حلواً، له طعم السكر على ألسنة الأطفال، يأخذني بعيداً عن مساكن عذاباتي ، ويرحل بي نحو آفاق سماوية رحبة أكاد ألمسها وأنا معه ... يدور الحديث بيننا ولا يقف عند مفرق... معه عرفت كيف تتلامس المشاعر بكيمياء خاصة عند تلاقي جسدينا ... دنيا بلا أبواب أو مفاتيح، تحتضننا في لحظة ممتدة.. معه اكتشفت ذاتي ، وتفجرت ينابيع أنوثتي ، وعرفت كيف أخطو نحو نفسي ، وأتسلل نحو كوامنها ؛ فأخرج المارد المسجون بأمر الأعراف والأخلاق والأديان!

ومعه... عرفت كيف يحمل الإنسان الواحد ألف وجه، يمد يده كل ساعة ليخرج ما يناسب اللحظة والناس... وتيقنت من أن الزواج يمد قلم المأذون ليشطب على سطور كثيرة في الحب، فيختصره ويمزق صفحاته، ويسحبه من مجاله المتسع الرحيب ليحصره في نقطة واحدة، يتوقف عندها الكون وكأنها واجب قومي ؛ تحية العلم التي يرددها التلميذ في الصباح ، وهو يتثاءب ويرفع قبضة يمينه ليدعك جفنيه الثقيلين مشتهياً الفراش !... الفراش، كل حياتنا تنحصر فوقه، يمد كل منا كفيه ليعبث بجسد الآخر، نؤدي دوراً اعتدنا

القيام به بحرفية شديدة، ثم نتباهى أمام أنفسنا ، وفي تجمعات الأصدقاء السخفاء، أننا مازلنا نتبادل العشق رغم مرور السنين ! وأن روتين الخميس الأسبوعي مازالت شعائره تقام! رغم إسراع كل منا بعده لإزالة ما علق به من آثار التلامس "الصدامي"، الذي تم قسراً وقهراً بإرادتنا الحرة جداً!

لا أدري ما الذي أكتبه؟! ولكني أحاول أن أفسر الهوة التي تفصلني عن زوجي هذه الأيام.

10 أغسطس 1999

"الاعتراف بالخطأ خير من التمادي فيه "... كثيراً ما ألقي على نفسي الحكم والمواعظ أمام المرآة ! أرفع سبابتي مهددة ومتوعدة نفسي: إن لم يصلح حالها فلسوف أنزل بها العقاب ! اليوم انطلقت في إلقاء محاضرة طويلة على نفسي ، حتى تزاحمت الكلمات المندفعة كالقيء الفجائي من فمي داخل حجرة النوم، وشعرت في النهاية بانخفاض مروع في نسبة أوكسجين الغرفة! فتحت النافذة الوحيدة فيها... لكن داخلني إحساس بأنها لم تفتح جيداً، فظللت أدفع "الشيش" بكل قوتي للخارج أكثر ، فأخذ يصفق حائط البناية ويصدر قرعات مدوية.

كانت رغبتي هي إصابة بعض من الأوكسجين الخارجي ، لكني توقفت عن محاولاتي عندما اصطدمت بوجه جارتي، التي ترتاب في

قواي العقلية منذ أن أقمت في المنزل ا لمقابل لها !... لم يكن يبعدني عنها سوى ستة أمتار، هي عرض الشارع الذي أسكنه منذ أربع سنوات.

أربع سنوات؟!... سرقني الزمان في هذا المكان ، هل يمكن لهذه المرأة التي تلقي بكتفيها السميرتين وثدييها اللحيمين، على الجزء السفلي من الإفريز الخشبي للنافذة ، وتنظر لي بع ينين يشوبهما القليل من الحياة، أن تطالعني بهذا الوجه الميت من نفس المكان بعد عشر سنوات؟!
بالطبع لا!

15 أغسطس 1999

من الصعب أن تلخص حياتك في حاجاتك... ما الذي تضطر يومياً إلى أن تبدأ به يومك؟! وماذا تأخذ وأنت تنفذ من باب المنزل إلى الشارع المغبر؟.. ما هي الأدوات التي ستتعامل معها شئت أم أبيت ، وأنت منكفئ على مكتبك تحرر خبراً لن يغير شيئاً في العالم ، وربما لن تسقط عليه عينا القارئ، الذي لا تستطيع أن تعول عليه كثيراً لو قرأه صدفة؟!

ما الذي تحبه وتحتاج إليه أينما ذهبت؟!.. وهل يمكنك أن تضحي به وأنت راحل، لمجرد أن الضرورات الحياتية تحتم دوماً عليك أن تلغي

ما تحب لأن الحياة لا تحتمله عادة ؟!.. حيرة وقعت فيها وأنا أجمع بعض أشيائي لأرحل عن مسكن زوجي اليوم، ذلك المكان الذي لم أتنسم فيه عبير الانتماء وحميمية العلاقة . كان خروجي من الباب هو الولوج من ممر طويل معتم، أحلم بأن أبصر الضوء بعده.. لم أفكر كثيراً في عواقب قراري، لكنني كنت أشعر بثقل وطء قدمي، كانت كحبات المطر الممتلئة التي تسقط على شعري في عز الشتاء فلا تتخلله، ولكنها تصيب جلد الرأس مباشرة وتوجعه، تحفر في الأرض الجافة فتترك أثراً . ولأول مرة أكتشف أن ذلك الشارع الذي أقطنه منذ سنوات، طويل جداً بما لا يسمح بالوصول إلى آخره سريعاً!

15 سبتمبر 1999

أصبحت حجرتي معبأة بالهزائم ، لم يكن ينقصني هزيمة "صبيحة" حتى تكتمل النماذج المتخمة نفسي بها، حتى إنها تحارب أنفاسي العابرة دخولاً وخروجاً.. كيف انهار التمثال الزائف الذي صنعته بيدي أمامها؟!.. كيف جردتني مباغتة إياي من كل سيوفي الخشبية ، التي عكفت على طلائها بالفضي اللامع أياماً إلى أن اكتمل الإيهام؟!

ومن أدراني أنها ستعود إليّ حاملة هماً جديداً؟!.. هم يصارع همي الجاثم على أنفاسي، هم يصرخ في وجهي: "أفيقي... أنت امرأة لا

أقل ولا أكثر !". كثيراً ما أردد أن الله خلق المرأة لتكون وحيدة في هذا العالم، لا جسد ضخماً ولا أناس يساندونها.

هل كان لزاماً عليّ خلق النقود التي جاءت "صبيحة" البارحة مطالبة بها، لإجراء عملية القرحة التي لم تعد تحتمل آلامها؟ !.. جاءت تذكرني بفقري، رغم الشهادة الجامعية التي عانت أمي من أجل أن أحصل عليها، رغم عملي في مؤسسة صحفية كبيرة ، وذلك اللقب الذي تنفتح الأفواه عند سماعه : "صحفية"! رغم الكتب التي تزاحمني في فراشي ، والتي فقدت معها جمال عيني، ظانة أنها سلاح.. كما ضحكت علي جدتي التي راحت مع سلاحها إلى التراب!

وكيف أصلح انكسارها وأنا أبات وانكساراتي تكبلني حيث لا فكاك؟!.. وكيف أخلق النقود وقد عجزت عن خلقها لأقرر مصيري مع زوجي، الذي يرى أن الرجل وحده هو الذي يقرر متى يترك امرأته وليس العكس؟!

عادت "صبيحة"، ولكنها أخذت الكثير هذه المرة، أخذت ما تبقى من "دونكيشوتيتي" ورحلت! رحلت لتواجه مصيرها ولكن دون سيفي الخشبي، تركته بين يدي، حيث لا مكان يحتمله سوى ذراعي الممزقين من كثرة الحروب الوهمية!

امرأة حاولت!

ماذا أفعل؟ سؤال لم تكن تتوقع يوماً أن تسأله لنفسها في هذا الموقف، فلقد و قع لها نفس الحادث مرتين من قبل : في المرة الأولى شعرت بانتصار على الطبيعة ، ومدت كفيها تتلمس بالأصابع بطنها، محاولةً إقناع نفسها بأن ثمة تكوراً ما هناك.

وعندما عادت للمنزل، أسرعت نحو حجرة النوم، خلعت عنها رداءها، لتلحظ بدقة التطورات التي طرأت على جسدها، لدرجة أنها فكت رباط مشدات الصدر لأول مرة بسهولة ، دون أن تشعر بألم في ذراعيها من الالتواء للخلف.

أخذت تتحسس ثدييها والحلمتين ، كي تتأكد من أقوال الأ طباء بأن الصدر يكبر مع الح مل. بعد أن أوهمت نفسها بالتغير الواضح عليها ، ارتدت ملابسها مرة أخرى وتنفست بعمق .. أخيراً تحقق الحلم بعد أن تسلل إليها اليأس مع عدم انتظام لقائها الجنسي بزوجها، الذي يعمل في بلدة بعيدة عن مدينتها ، ولا تراه سوى بضعة أيام مع مطلع أول كل شهر.

لم يكن وجود زوجه ا حولها باستمرار هو ما تصبو إليه .. لكن طفلاً تأتي به إلى الحياة ، كان مبتغاها والنشوة التي سعت جاهدة كي تستشعر لذتها. آنذاك لم تعبأ كثيراً بالإحباط الذي أصابها ، نتيجة

لقاءاتها الزوجية في الفراش .. وإن كانت تسأل دوماً نفسها عقب كل لقاء "أهذا هو ما يسعى إليه ا لبشر كي يسعدوا؟!"، فلم تكن تتذكر من تلك اللقاءات العابرة سوى لزوجة لعاب زوجها الملتصق بجسدها، ورائحة سائله المنفرة!

سارت في طريقها للمنزل، وكفها قابضة على ورقة التحليل المبللة بعرقها.. عرقها الذي أخذ ينسال من قمة جسدها حتى راحة كفيها وأخمص القدمين.. كانت خطواتها بطيئة، تتعثر بين الحين والآخر في حصوات الطريق.. ورغم ترنحها وعدم اتزانها وهي تخطو نحو بيتها، إلا أن عقلها كان يدور كعقرب ساعة خربة، تقلب الأمور على جميع أوجهها محاولة إيجاد حل سريع.

"لابد من التخلص من ذلك الحمل الجديد؟ "، هكذا قالت بصوت مسموع وكأنها تملي على نفسها قراراً لابد من تنفيذه!.. لكن كيف الخلاص؟ قفزت إلى ذهنها حكايات جدتها عن النساء اللاتي أجهضن أنفسهن بعيداً عن أعين ا لبشر، ليتخلصن من وصمة لحقت بهن .. مازال صوتها العالي ذو النبرة الخشنة يتردد في أذنيها وهي تحكي قصصها: "كانت أم السعيد جارة أم ي قد بلغت من العمر خمسين عاماً.. لكنها كانت امرأة ولوداً وزوجها رغم تجاوزه السبعين لا يتركها لحالها! حملت أكثر من عشرين مرة .. لكن لم يعش لها سوى أحد عشر نفساً.. وبعد أن ظنت المرأة أنها انتهت من الحمل والإنجاب، فوجئت بنفسها تحمل البطن الواحد والعشرين .. بالطبع مثلما تفعل

أي امرأة أوكلت أمرها لله.. إلا أن ولده ا السعيد رفض أن يخرج إلى الحياة أخ رضيع وقد بلغ هو الأربعين من عمره، فأصدر أوامره لأمه ونفذت المسكينة بأُعواد الملوخية ، حتى سقط الطفل ف ي دورة المياه وراح لحال سبيله.. وكادت أم السعيد تضيع في شربة ماء لولا لطف الله"

"ماذا كانت تقصد جدتي بأعواد الملوخية؟ !".. وجدت نفسها تعرج على السوق، وعيناها تتنقلان بين مشنات البائعين وأقفاصهم حتى وجدتها، فابتاعت منها ما تريد .. لكنها وهي عائدة في الطريق استطاعت أن تدرك كيفية الإجهاض بأعواد الملوخية، فاقشعر بدنها وامتد الخوف ليشمل جسدها كله، داخلها إحساس مبهم تجاه ذلك الطفل لكنها أبت أن تفسره بالحب فكيف تحب المرأة جلادها؟!

اعترتها موجة حنين لصباها البعيد .. عندما كانت تحمل حقيبتها المدرسية وتضمها بحنان لصدرها، بينما ضفائرها تتهدل على جانبي وجهها تؤنسها بوشوشات الشرائط الحمرا ء لأذنها وهي تحتك برقبتها.. كانت "نغبشات" رقيقة مازالت تستشعرها حتى الآن رغم مرور السنين.. باب المدرسة الحديدي بطلائه الباهت وبقع الصدأ المنتشرة عليه، وصريره عندما يفتحه عم رمضان .. كانت وزميلاتها يعبرن منه ملقيات تحية الصباح عليه ، وابتسامته العريضة تعلو وجهه. شاربه الكث يمتد بطول الشفة العليا ، فيكسبه وقاراً على طيبته الطالة من عينيه.. كن يلجن نحو الفناء من صالة معتمة حتى

مع ضوء الصباح، وكأنهن يخرجن من رحم أم نحو عالم فسيح.. يولدن يومياً مع زقزقات العصافير السا كنة في الشجر المتفرق في الفناء .. يحكين بصوت هامس مغامراتهن العاطفية التي لا تتجاوز الحديث في التليفون! ويحلمن بغد لابد من أن يكون مشرقاً، وكانت الوحيدة التي لا تمتلك قصصاً للعشق وصديقاتها لم يصدقنها أبداً، لذا لقبنها "بالحويطة"!

آه لو تعرف قراءة المستقبل، لكانت تركت نفسها للحب ترشف حلاوته وتسبح في آفاقه العريضة . برغم أن أحلامها كانت تسبقها وتجسد الأيام والسنين المقبلة أمام عينيها، فتجول بخاطرها بين أحداثها وتراها دوماً سعيدة، إلا أنها لم تتكهن يوماً بصر وف زمانها الحقيقي.

كيف كانت ستعرف أن ذلك الطارق الوسيم الذي هبط على دارهم وهي في الثامنة عشر ة من عمره ا، لم يكن يبغي سوى جسد اً للمتعة وخادمةً يبثها بذوره فتطرحها بمن يحمل اسمه ويخلده؟! كان دوماً يؤكد لها وهما بعد خطيبين، أنه لا يمانع عملها، ولم تكن تدرك أنه لا يريد سوى ما يعود به عملها، حتى ولو كان قروشاً قليلة!

أخذها الفستان الأبيض بوهجه ، والخاتم البراق الذي زين بنصرها الأيمن، من محاولة التعرف على ذلك الآخر الذي هبط عليها في وقت مبكر من عمرها . كان حديث الفتيات عن الحب والزواج يدفعها

للتباهي بالخطبة والاشتراك في ثرثرات العشق .. أخذها كل ذلك من أحلامها الأخرى، وتخيلت أن كل شيء سيتحقق في هدوء مع ذلك الفارس الذي عرفته في أحلامها ، وخلعت عليه صفات نجوم السينما، الذين لم تمل التطلع إليهم في أيام الصبا.

أخذت تصعد الدرج بخطوات متثاقلة .. يدها تتشبث "بالدربزين" لتجذب بها جسدها المتراخي، أدارت المفتاح في ثقب الباب ودفعته ببطء، جرى نحوها ولداها كالعادة وتعلقا برقبتها، لأول مرة تحملهما بكلتي ذراعيها رغم ثقلهما، بل تعمدت دفعهما نحو بطنها، لكن والدتها التي كانت تنتظرها صرخت في الطفلين كي يتركاها، فاستجابا ناظرين إليها بعيون تملؤها الدموع.. لم تستطع مقاومة تلك النظرات فألقت بجسدها على الأريكة وفتحت ذراعيها على اتساعهما مشيرة للطفلين، فلندفعا بقوة نحوها .. ودون أن تشعر وجدت نفسها تضع كفيها على بطنها اتقاءً لاصطدام الولدين بها.

تداركت نفسها والتبست عليها مشاعرها .. لكنها وهي تحتضن الطفلين قالت : "لن يكون لي أطفال بعد هذين "..سمعتها أمها فتنفست براحة شديدة ورددت : "الحمد لله .. هم وانزاح "! رفعت عينيها نحو أمها بدهش واستراحت لما فهمته المرأة العجوز، ثم قامت لتبدأ مزاولة نشاطها المنزلي ، ومعه تعيد التفكير مرة أخرى في طرق للخلاص.

في المساء أجبرها زوجها على مشاهدة فيلم أحضره معه، مشيراً إليها بابتسامة كشفت عن أسنانه الصفر اء المعروقة بالسواد من كثرة تدخين السجائر ، أنه مليء بالمغامرات التي تج دد النشاط . جلس ممداً ساقيه للأمام ويداه تداعبان عضوه .. فسرت في جسدها قشعريرة ورغبت في التقيؤ، إلا أنها هدأت عندما شاهدت أحداث الفيلم الذي يسرد قصص ثلاث نساء أجبره ن القدر على الحمل، ويحاولن التخلص من الجنين. نهض زوجها مكشراً عن أنيابه، لاعناً صاحب نادي الفيديو الذي ضحك عليه .. ثم توجه نحو حجرة النوم وهو يردد بغضب "أستغفر الله"!

لم تأبه به وتسمرت على مقعدها وعيناها مشدودتان لشاشة التلفزيون، رغم أن النهاية لم تأت على هواها ، بعد أن ذاقت النساء الثلاث مرارة الفشل بالموت أو الاستسلام.

الأيام تمر وأحشاؤها التي حملت طفلين من قبل تستجيب للطفل الثالث بسرعة ، فتتمدد وتتسع وتتكور معه، وهي ترقب بصمت وتصمم على الإنكار والكذب بأنها تأكل كثيراً ووزنها يزيد . كانت صورتها في المرآة أسوأ ما تصطدم به كل صباح ، فثدياها يترهلان وأردافها تعلو شيئاً فشيئاً، بينما تنطمس معالم خصرها.. مع ذلك لم تفقد الأمل في الخلاص.

كانت تتعمد حمل الأشياء الثقيلة ، وأصبحت شعلة متقدة لا تهدأ أبداً، لا تكاد تجلس دقيقة واحدة حتى تنهض مرة أخرى لترتيب المنزل وتنظيفه. لم تشغلها كثيراً ملاحظات زوجها التي تشير إلى بدانتها، ووجهها الذي يفقد جماله يوماً بعد يوم، ولم تهتم بقصصه عن فتيات وهميات يعشقنه.. كانت لا تجيب إلا بنظرات كارهة تفضح الضغينة التي تكنها له في قلبها.

بعد أن كادت تستجيب لفشلها المتكرر ، تجدد الأمل مرة أخرى بعد أن أفشت لها إحدى جاراتها بسر صديقة أجهضت نفسها عند طبيب، حينها لم تعبأ بظنون تلك الجارة التي ستلاحقها على ألسنة جاراتها كلهن، وسألتها "أين هو؟!".

عادت أحلامها تراودها مرة أخرى، بل شطحت بخيالها بعيداً، حيث لا زوج يؤرق حياتها ولا أطفال يقتلون الساعات برغباتهم اللامنتهية . عادت ترى نفسها مرة أخرى أستاذة تتدرج في المناصب العلمية .. حرة طليقة، تذهب إلى المسارح والسينمات دون رفض أو تبرم من أحد، وهكذا مرت بضعة أيام قبل أن تتهيأ الفرصة لزيارة الطبيب.

حملت معها كل مدخراتها التي لا تتجاوز خمسمائة جنيه، وفي عيادة الطبيب تنفست الصعداء عندما أخبرتها الممرضة أن العملية لن تكلفها أكثر من ثلاثمائة جنيه .. وأعقبت ذلك بقولها "إلا إذاااا"!

فتساءلت عن "إلا" هذه، فأجابت الممرضة بلهجة روتينية: "إلا إذا لم تكن متزوجة".

نزلت الجملة على رأسها كالصاعقة، وأسرعت تدرأ عن نفسها عاراً قائلة بثقة : "بالطبع م تزوجة".. علت ابتسامة ساخرة شفتي الممرضة، وكأنها لا تصدقها وقالت : "عموماً لو كنت كذلك فلم لم تصحبي زوجك معك؟!".

كان وقع السؤال عليها مدوياً ، ووجدت نفسها تجيل النظر بالمكان وقد امتقع لونها واعتراها شعور بالعري، فأخذت تلملم ثيابها وتضمها على جسدها ، لم تر داخ ل صالة العيادة سوى فتيات صغيرات ، تجمدت ملامحهن وطفا الأنين على شفاهن، وبضع نساء كست وجوههن أصباغ فاقعة اللون ، يرتدين ملابس تكشف عن أفخاذهن والنهود!

لم تدر ماذا تفعل ؛ فلقد شعرت بشلل يسمر قدميها بالأرض ، وضجيج يصعد من قلبها ليصل لسمعها، بينما يدور عقلها باحثاً عن مخرج. وسط غمامة كثيفة ضببت عينيها ، استطاعت تحديد موقع باب الخروج، فحولت جسدها نحوه بصعوبة .. أخذت تجر قدميها الواحدة تلو الأخرى ، حتى وصلت لفوهة الباب فدلفت منه ، وكأنها تنفلت من شقوق ضيقة بصخور متشابكة.. وصوت الممرضة المتغنج يأتي من بعيد: "تعالي يا مدام لم نحدد الموعد بعد!".

"إن موت أي إنسان يجعلني أتضاءل؛ لأن رحاب الإنسانية يضمني".
الشاعر الإنجليزي جون دون
"إن القمة التي ينبغي تجاوزها هي الموت".
هيجل

<u>اسم على جدار</u>

أمام حجرة مستطيلة ، ضئيلة وضيقة، وقفت إلى جوار أمي صباح عيد الفطر، كنا ننتظر رجلاً يحفظ لديه مفتاح تلك الحجرة..

في حقيبتها كانت أمي تحمل مصحفاً ونظارة القراءة الخاصة بها .. كما كانت تحمل عينين مجهزتين لذرف الدموع، ولساناً يحفظ العديد من الأدعية المعبأة في كتيبات الأذكار.

عندما انفتح باب الحجرة ، انسلت أمي عبره، وافترشت حصيرةً مستريحةً فوق البلاط المغبر، لم يحتك بها جسدٌ منذ زمن. لم أشارك أمي في الحصيرة، وآثرت البقاء أسفل أشعة الشمس، التي تدخل على استحياء منيرةً المصحف المفتوح بين يدي أمي الآن ،

فقد جذبتني لوحة معلقة على جدارِ ذلك البناء: (هنا ترقد المغفور لهاا عطيات محمد المكاوي).

عندما رحلت تحملها عربة الإسعاف، اعتبرته خروجاً مؤقتاً كما اعتدت معها، إما أن تخرج وتغيب عند أحد أبنائها ثم تعود، أو أظل أخطط للهرب من جنتها حتى يتحقق لي ذلك، ثم أعود كارهة ومشتاقة.. هكذا كنا أنا وهي .. حالة مستمرة من الفرار والعودة .. من الحب والسخط.. من الإعجاب.. والرغبة في تدمير بعضنا البعض!

منذ أربع سنوات وهي في حالة فرار مني، استر حت منها كثيراً، وحكيت عنها أكثر. تلك المرأة التي أرخت لسلسلة النسب الأمو ي في لحمي وعظامي، كانت لا تمل سؤالي وأختي : هل تعلمان ما اسمكما؟ وكنت لا أمل لعب تلك اللعبة معها .. فأسمعها من جديد وهي تتغنى باسمي: أنت أمنية بنت عفاف بنت عطيات بنت وجيدة بنت نبيهة بنت عبد القادر عزام .. كنت أتعجب من ختمها لاسمي باسم ذكر، بعد تلك السلسلة الطويلة من النساء ! وعندما كبرت قلت لنفسي : ربما لم تستطع الحصول على اسم تلك الجدة الموغلة قدماً في الزمن، أو ربما لم تستطع رغم أفكارها التحررية ، أن تستغني عن الذكر في اسمنا النسائي، مؤكدة بذلك أننا لسنا نبتاً شيطانياً!

عندما رحلت .. تاركة تلك المرة ثيابها وجواربها وأغطية رأسها، وحافظة نقودها التي كنت أسطو عليها أحياناً ! فرحةً بحيرتها في البحث عن النقود الناقصة ، وحقيبتها الوحيدة، وحذاءها الذي كان المساس به كانتهاك المقدسات .. وأنا أعلم أنها لن تعود .. لم يفاجئني ابن خالي عندما حضر صباحاً حاملاً نبأ رحيلها ، كل ما شغلني سؤال واحد: كيف تغيب عطيات المكاوي؟!
تمسك أطراف طرحتها المربعة وتحولها إلى مثلث صغير تضعه في منتصف رأسها ، ثم تمرره حول وجهها وتعقده عند رقبتها عقدة واحدة.. تنهض بثوبها الذي يكس و ساقيها حتى أسفل الركبتين بمسافة قصيرة، وجوربها النظيف أبداً يحيل الجزء العاري إلى السواد، بينما تستقر قدماها داخل حذائها الملمع جيداً .. تنادي عليّ فأمثل أم امها ضجرة من معاينتها اليومية لتناسق ثوبي ، وانكباح ثورة شعري بشريطين ملتفين داخل نسيج الضفيرتين ، فإذا ما تبرمت، تلقي عليّ محاضرة مطولة في الأناقة، وتبدأ سرد قصة ملت أذناي من استقبالها : (كنت لا أملك سوى ثوباً واحداً وحذاءً واحداً للخروج... كنت أحافظ عليهما حتى أخرج إلى الناس أنيقة، بينما ملابسي البيتية مرقعة ، أداريها بروب نظيف مهندم إذا ما قرع أحدهم باب المنزل .. وبذلك لم يكتشف أحد أنني فقيرة، وكانت النساء يحسدنني على أناقتي وجمالي).

هكذا تبدأ رحلتنا إلى السوق ، تمر على البائعين المتراصين يميناً ويساراً لتعرف الأسعار، تنظم افتراشهم للأرض بمشناتهم ! تأمر

الفلاحات أن يجلسن في خط مستقيم لا يحدن عنه ببضاعتهن ، حتى يسير الناس في يسر دون عرقلة، والفلاحات يمتثلن لأوامرها! فإذا ما تجاوزتهن، أستدير برأسي ناظرة إليهن، فأجدهن يبتسمن متندرات ومتبرمات، فأتساءل: لم إذن نفذن أوامرها؟
أتعمد الخطو الثقيل لأنها ترفض أن أتخطى خطوها العجوز، وأتململ عندما تأمرني بأن نعرج على أحد الدكاكين طالبة مقعداً لها كي تستريح، وعندما أتعجلها تنظر لي وكأنها تحقد على طفولتي ، فأصمت وأزفر حنقي عليها ! يتكرر ذلك طوال الطريق حتى تستقر عند العم حسن الخُضري.. كانت رؤية دكانه مثل العثور على قطرة ماء في ذروة قيظ أغسطس .. لم نكن نشتري شيئاً إلا من عنده، فلدينا حساب مفتوح، تسدده هي أول كل شهر عندما تتسلم راتب جدي التقاعدي، والذي لم يكن يقتطع منه سوى جنيهات قليلة لشراء سجائره.

عند العم حسن تبدأ رحلة عذاب جديدة، فقد كانت تجبرني على الانحناء طويلاً فوق أقفاص الخضر، كي أنتقي منها الجيد فقط، حتى البامية والفاصوليا والبازلاء، كانت تصر على انتقائها بالواحدة، فإذا ما استجرت بالعم حسن، يتطاير الشرر من عينيها ، ويخرج صوتها من بين أضراسها (إياك ألاقي حباية بايظة)! فأعود لأميل فوق الأقفاص، أنقضها من عاليها إلى سافلها، باحثة عن الخضرة المتكاملة الشروط!

كنت دائماً أؤكد لنفسي أنها تبدع في ابتكار الأساليب لقتلي، فأحاول التملص منها والهروب من تلك الرحلة الشاقة شبه اليومية، دافعة أمامها بأختي علها ترضى بها بديلاً، لكنها كانت تصر عليّ، وتؤكد أنها لا تستريح إلا معي .. رغم ذلك وفي ساعات صفائها المعدودة، تصرح بأنها تحب أختي أكثر، لأنها مطيعة وأكثر هدوءاً..!.. حيرتني تلك المرأة ومازلت متحيرة وأتساءل: هل كانت تحبني؟!

سكونها الأول هنا في مقابر الإمام الليثي، منذ صرختها الأولى عند الميلاد.. هذا الفعل الذي لم تقدم عليه حتى عندما أقعدتها جلطة بالمخ.. هنا من المفترض أنها تسكن دون حراك ، حيث تقرفص أمي فوقها متمتمة بآيات قرآنية، بينما كفها عالقة بعلبة المناديل ، تسحب الواحد تلو الآخر مبللة إياه بدموعها ومخاطها الذي لم ينقطع! لم أتعامل مع غيابها لحظة على أنه موت، ذلك الحدث الذي ثرثرت حوله نساء العائلة اللاتي تجمعن في صالة منزلنا عقب غيابها الأخير، كان جلوسي معهن مجرد لياقة تستلزمها الضيافة، وكانت دموعي لا تجد مبرراً للتساقط، في حين كانت دموع أمي تنهمر مثل الآن!

في إجازتنا الصيفية، تعد عليّ وأختي ساعات نومنا، فإذا ما دقت الساعة التاسعة صباحاً ، حتى تبدأ النداء علينا غير عابئة بتبرمنا . ننتشل جسدينا من فوق السرير، ونخرج إليها وهي متربعة على حافة الأريكة الملاصقة لجدار الصالة، تغمرها أشعة الشمس

المنسكبة، عبر الشرفة المستقرة في آخر الطرقة الصغيرة ، التي تنتهي عند أول مجلسها. نعد الإفطار ونرص الأطباق فوق أحد المقاعد الذي نضعه أمامها مباشرة، في حين نلتف بمقعدين آخرين حولها، مكونات سفرة صغيرة تليق بإفطارنا، الذي كان يتجاوز الطعام عابراً داخل سنيها، التي تجتزئ منها حكاية لكل يوم.

كانت تعيش عمرها دفعة واحدة، كل أيامها التي خلّفتها وراءها ماثلة أمام عينيها ، تعيدها علينا بلسانها وجسدها الذي كان يجتر معها حيوية ماضيها وبهاءه. كنت أحب أن تكرر على مسامعنا حكايتها مع التعليم، فهذه المرأة التي انفتحت بوابة عمرها على مطلع القرن العشرين ، أكملت دراستها حتى حصلت على شهادة المعلمات، في الوقت الذي كانت المرأة التي تكتب وتقرأ نادرة الوجود.

تضحك وهي تقلد جدتها، عندما كانت تنادي على أبيها بصوت متقطع قائلة: "يا مكاوي بنتك هتجيب لك العار".. مشيرة إلى ثدييها اللذين تكورا مثل الرمان في صدرها، وردفيها اللذين انخرطا بكمال، وإليتيها اللتين استدارتا مثيرتين لعاب الرجال في الشارع، فما أن انصاع أبوها لتقريع أمه حتى وقفت كلبؤة "تحاجي" على أشبالها الصغار.

جمعت الأحجار من الطريق ورجمت دارهم حتى حطمت زجاج النوافذ، وتجرح الكلس النائم على الجدران ! قيدوها بالحبال في أعمدة سريرها النحاسي، فأضربت عن الطعام والشراب، معتصمة، حتى يعيدوها إلى المدرسة. ما الذي جعلها تفعل ذلك وسط ترهات "معيوبية" تعليم الفتيات آنذاك؟ ماذا كان هدفها من وراء إكمال تعليمها؟ والنساء لا يفكرن إلا في تعلم فنون الطبخ ، وكشط أجسادهن باحتراف مبالغ فيه ، كي يحلون في أعين العرسان ؟! وإجادة التغنج والتدلل ، ليحققن أعلى عدد من الأساور والأقراط والقلادات الذهبية ؟! والتفنن في ابتلاع أكبر قدر من "المفتقة" والمحلب كي تتراكم طبقات الشحوم ! في محاولة لإرضاء ذكرهن الذي كان غالباً ما يعشق العبث باللحم الإسفنجي الطري؟!

بعد مرور أر بعة أيام وهي تلقف ساحبة الهواء إلى صدرها بصعوبة، تأكد والدها المعلم محمد المكاوي أنها لن تتراجع، فخاف على فتاته وأعادها للمدرسة مضطراً إلى تحمل تقريع والدته الذي لا ينقطع، وهمهمات جيرانه التي تصل إلى أذنه خارقة جدار طبلتها!

لكن تلك الحسرة التي طالما رأيتها تطل من عينيها ، وهي تحكي رفض والدها القاطع لأن تعمل ، مفضلاً دفع الغرامة المالية على أن يراها تتحدث مع المدرسين ؛ كانت تشعرني بالحزن عليها ، رغم تشوش إحساسي تجاهها بين الحب والكره!

في المنصورة ، تلك المدينة الجميلة، التي تحمل بين جوانبها حكايات وأساطير وعيوناً ملونة، تتناغ م مع جدائل الشعر الأصفر والبشرة الناصعة البياض، تشي باختلاط واضح مع الفرنسيين ، في مطلع القرن التاسع عشر، نشأت وحملت سمات خاصة لجمال لم يلحظه محبو الملامح الإفرنجية، التي تنتشر بين العائلات هناك . كانت وحدها الخمرية ذات العيون السوداء والشع ر الأسود المتهدل على كتفيها كاسياً ظهرها ، وسط بنات خالاتها البيضاوات ذوات العيون الخضر والشعر الذهبي، ووحدها دونهن فقدت حبها من أجل هذه الملامح.

السيد رجب.. ابن خالتها الذي لم أدرك مدى عشقها إياه، إلا عندما تذوقت العشق وعلمت الفقد، كانت تحتفظ بصورته بين أكداس الصور المتكسر ة والمثنية الأطراف ، والتي تشوبها صفرة الزمن الغابر.. مخلفاً إ ياها. صور لأفراد عائلتها تخرجها من حقيبة جف جلدها، وأصيب قفلها النحاس ي ذو المقبض العاجي بالتكلس .. أسمع تكتكة انفتاحه الواهن، فأنهض من على مقعدي وأزيح كتبي الدراسية جانباً، متطلعة إليها وهي قابعة على طرف أريكتها الأثيرة، منتظرة نداءها لنا كي ترينا صورها العتيقة .. وعندما تأتي صورته ترتاح شفتاها المزممتان بابتسامة تضفي نوراً على وجهها، ثم تنطلق في سرد حكايتها مع هذا الـ"رجب". أسمعها، ربما للمرة الألف، في حين تتركنا أختي غير عابئة بسماع قصة تكررت على مسامعنا كثيراً: (كان يحبني.. عندما ماتت أمي حضر من إنجلترا

ليعزيني فيها، وعندما سألني عن أبنائي أجبته بأنني لدي خمسة من الأبناء، فقال لي أدخليهم الجامعة يا عطيات حتى لو رقعت ملابسك).. تتنهد ثم تعود لتقول : (ورقعتها حتى تخرجوا جميعاً من الجامعة).. فإذا ما صمتت وشَعُرْت بأنها لن تذكر قصة حبهما، أحثها على أن تنطلق عبر ذاكرتها لتستعيد ثرثرات الماضي : (كنا مخطوبين.. منذ صغري وأنا أعلم أن السيد رجب زوج المستقبل، وكنت سعيدة أنني سأتزوج أستاذاً جامعياً ، وليس مجرد أستاذ في الجامعة، لكنه في أكسفورد إنجلترا .. حتى تخرجت من المعلمات، وانتظرت إتمام زواجنا الذي لم ينعقد أبداً)).. (لماذا يا نينة؟).. (خالتي.. أمه يعني.. قالت له إنني لست بيضاء وعيناي وشعري سود، وإنني لا أصلح بتلك المواصفات لإنجلترا !.. وقالت له إن ابنة خالتي الأخرى "*بير جمال*" لديها كل مواصفات إنجلترا .. ولما رفض قائلاً إنه لا يريد سواي .. قالت له إنها ستغضب عليه إلى يوم الدين لو تزوجني.. فقال لها إذا لم أتزوج عطيات لن أتزوج أبداً .. وفعلاً لم يتزوج حتى مات)!

كانت حكاية سواد عينيها وشعرها، وسمار بشرتها ، لا تقنعني برفض خالتها لها ، حتى قالت يوماً بصوت كسير : (اتفقت خالا تي عليّ، لأنهن كن يغرن مني ، فقد كنت أجمل من بناتهن رغم سماري، وخطابي كثيرين، وكنت متعلمة، وأبي تاجر كبير يحضر لي ملابس مثل برات الباشوات.. حقدهن عليّ جعل "السيد" يسافر ولا يعود ولا أراه إلا عندما ماتت أمي).

ودوماً تنهي "الحدوتة" بجملة أشعر معها أنها تخرج دفعة واحدة ، مخترقة جدار صدرها إلى الفضاء ، حتى أظنها لا تمهل اللسان أن يؤدي وظيفته بنطقها: (هيه... أهي أيام وعدت!).

الآن ومن أمام مرقدها الأخير ، أظنها تركت كل شيء وذهبت للقاء "السيد".. خلفت وراءها صورته التي احتفظت بها بعدها، كما خلفت وراءها صوراً عديدة ، تحكي نيابة عنها كل أيامها التي أكملت ثلاثة وثمانين عاماً وشهراً. ذهبت على ما أظن حيث أرادت دون بوح في حياتها، فلطالما كنت أُخرِج الكلمات الحقيقية من بين ثرثراتها، وأعيد ترتيبها وسردها على نفسي : (لو كانت أمه وافقت كنت تزوجته ، وعشت معه حياة غير تلك الحياة التي شقيت فيها، منذ تركت بيت والدي إلى بيت زوجي.. كنت عشت بعيداً عن جهل أخوات زوجي، وعلمت أبنائي دون أن أبيع كل شيء حتى أواني مطبخي، واحتفظت بجمالي الذي هرسته سنابك الفقر وصروف الزمان، كان تاريخي تبدل، وأصبحت شيئاً مثل هؤلاء النسوة اللاتي حررن المرأة، فأنا لا أقل عنهن شيئاً، سرت مثلما سرن في مظاهرات السفور، ومزقت الحجاب ودسته بأقدامي، وهتفت ضد المستعمر الإنجليزي، ووقفت أمام بنادقه متحدية رصاصه، فاتحة صدري للموت، وصرخت في وجوه عساكرهم : اقتلونا إذا استطعتم.. أرونا شجاعتكم. أو ربما شجعني السيد على أن أمثل ، فأصبح سارة برنار الشرق بدلاً من فاطمة رشدي، فقد كنت أمثل على مسرح

المدرسة، وكان وقوفي على خشبته يصيب الرجال على مقاعد المتفرجين بالانبهار، فإذا ما بدأت بأداء دوري يصمتون وكأنهم يسمعون أم كلثوم، وإذا ما انتهيت كللوني بالزهور وألقوا عليّ طرابيشهم.. أو ربما جعلني أكمل دراستي الموسيقية حتى أصبحت بيانست شهيرة أعزف هذه الموسيقى الغربية، كنت سأعرفها لو سافرت معه إلى إنجلترا، أو ربما كنت أصبحت رسامة شهيرة، فقد كانت لوحاتي تثير إعجاب أساتذتي في المعلمات، ويعلقها أساتذة أبنائي في الصدارة بمكتب الناظر في مدارسهم).

وفي النهاية تنهي أيضاً كلامها بـ: (هيييه... أهي أيام وعدت !)..
هل هي أيام عدت بالفعل يا عطيات؟! مرت عليك ومررتك هكذا دون آثار تثبت أنك كنت هنا، عدا هذه اللوحة المعلقة على جدار تلك الحجرة الضئيلة، التي مازالت أمي تملأ أجواءها الخانقة بتمتمات من الأذكار والأدعية و الصلوات، التي ستخلفها وراءها عابرة الباب الحديدي المترب، لتسقي الصبار المحيط بها، ثم تمضي بحزن شديد لا يشي أيضاً بأنك كنت هنا.

هنا على هذه الأرض التي أطؤها الآن بقدمي، وهذه الشوارع التي أركض فيها وراء أحلامي، تدفئك أو تلهبك تلك الشمس التي تعتليني، وينفض حبيبات جلدك صقيع الشتاء، ورغم كل الإحباطات التي وراءنا تأملين معنا في الغد. هل عبثاً جئت وإلى العبث ذهبت؟! أو أنك مضيت لأنه لم يعد في الحياة ما يستحق بقاءك؟!

تبددت أيامك وتبعثرت أحلامك بين ردهات الزمن، وتشرذم كل التاريخ والشعر اللذين كنت تحفظينهما عن ظهر قلب، على جدار القبر الصامت.

تنهض أمي، وكما أعلم مسبقاً، تمسح بآخر المناديل، آخر قطرات دموع على خديها، تلملم الأشياء لتعيد دسها في حقيبتها، تنفض رداءها من الأتربة التي علقت بها من تلك الحجرة المهملة، ثم تخرج لتطلب ماء تسقي به الصبار، وما أن تفرغ من سقايته تستحلف حارس القبر "بغلاوة أبنائه" أن يرعى عظام جدتي جيداً، ثم تخرج من حقيبتها عشرين جنيهاً تضعها في يده، لتخطو بعد ذلك نحوي متسائلة في همس: (أعطيته عشرين جنيهاً .. مش كفاية؟ !).. فأجيبها غير عابئة: (كفاية)!

نمضي لنتركك وحدك مرة أخرى، رغم أن هناك بداخلي ما يؤكد لي أنك لست تحت هذه الحجرة، وأنك لا بد تفعلين شيئاً في عالمك الجديد. تفرضين سيطرتك وهيمنتك على الأمور هناك! ربما تحاولين إصلاح ما أفسدته لك الدنيا.. ربما!..

تبتعد خطانا وقبل أن يلفظنا باب المقابر إلى الشارع المكتظ، أستدير لأتأكد من الاسم المكتوب على الجدار مرة أخرى، وعندما أقرأ: (هنا ترقد المغفور لها عطيات محمد المكاوي)، أبكي.. أبكي لأول مرة

على اختفائها النهائي.. لكنني أعود لأسأل: (هل ماتت فعلاً عطيات المكاوي؟!).

فوات الأوان

تحاصرني دوماً بعينيها الذابلتين وجفنيها المتهدلين ، ناظرة للأرض وكأن صخب الشارع من حولها لا يعنيها... لم أرها أبداً تأكل، ولم أجد بجانبها بقايا طعام ، وكأنها استغنت عن هذه الرغبة الإنسانية الملحة!

متى كانت تأكل؟ ! ليس هذا هو المهم ، ولكني كنت أتذكرها وأنا أتناول صنوف الطعام الممتدة على المائدة أمامي ثلاث مرات يومياً.. بل إنني أقلعت عن التسلي بالأكل في أوقات فراغي ، لما أحسسته منها بعدم الشعور بالجوع.

رغم ذلك أشعر أنها جائعة، ولكن ليس الجوع الذي اعتدناه، بل جوعاً أعمق بكثير.. ذلك الجو السرمدي الذي قرأت عنه ذات مرة!

رأيتها يوماً تغسل قدميها بالماء العكر الراكد بجوار الرصيف على جانب الشارع، فتفجر أمامي سؤال حائر : لماذا تهتم بنظافة قدميها رغم كتل القاذورات الساكنة على الجلد؟ ! وهل تحاول تنظيف جسدها بنفس الطريقة أيضاً؟! وأين؟! وكيف؟!..

تغسل قدميها لتعود إلى نفس النظرة المنكسرة، والرأس المنكس الذي لا يرى سوى الأحذية التي تمر جوارها.

هذه المرأة التي أصطدم بها يومياً جوار مستشفى الجلاء.. ملامح رقيقة تشي بفجر زائل ، تختفي وراء طبقات وحواجز سوداء لامعة، لكنها تفرض نفسها على عيني بوضوح .. الجسد الأبيض الر جراج يتقافز وراء الأسمال البالية ، التي تحاول رغم ضعف أنسجتها أن تضمها بقوة على نهديها وردفيها، فتذكرني بنفسي!

الأيام تمر مهرولة لتكمل سنة فسنوات، ورحيق الأيام الغابرة يعطر أنفاسي، والخوف من المستقبل يرعد جسدي بقوة ، أكملت الثلاثين ولم يتقدم لي الرجل المناسب فأص بحت وحيدة مع أمي ، التي تتقدم بخطى واسعة نحو الموت .. لا يخرجني من دائرتي المغلقة سوى بعض الدمى التي شغلت جميع أركان غرفتي ، في زحام ترفضه أمي وتعلق عليه قائلة: لقد تخطيت الثلاثين وتتظاهرين بأنك في الثالثة!.. هذه المرأة العجوز تجرحني دون أن تدري! فأهرب من همو مي بزحام من الأصدقاء لا نفع لهم ، سوى أن نهدر الساعات في المطاعم أو على الشواطئ.

ينتهي يومي دوماً بالنوم دون رغبة فيه ، فتعود امرأة الشارع هذه لتطاردني من جديد. "امرأة الشارع"! لقب استعصى على لساني عندما حاولت ذكره مرة أخرى ، فقد فضلت تلقيبها "بالسيدة"... فهي فعلاً امرأة (سيدة)، لا تختلف كثيراً عن زميلات العمل، ولا عن نساء كثيرات أعرفهن ، إلا أنها بلا مأوى أو رجل .. ملامح وجهها مألوفة لدي، ورغم ذلك كنت أراه كل مرة مختلفاً عن المرة السابقة،

وإن لم تفقد ألفتها !... فها هي تشبه جارتنا ، وأحياناً أجدها كوجه صديقتي، واستقر وجهها ذات مرة وكأنه أمي التي أشبهها كثيراً !... أصابني ذلك برعدة في جسدي، فتعثرت خطاي وكدت أفقد توازني.

ذلك الحلم الذي يطاردني منذ أن رأيتها، فها هي تناديني فأستجيب وأسير جوارها بملابسي الفاخرة، ومساحيقي التي أخفي بها بعض التجاعيد اليسيرة التي زحفت إلى عيني!.. أسير متفاخرة وكأنني أتأبط ذراع أميرة ، وأصعد بها إلى عملي فيلتف حولي زملائي ، والسخرية تتراقص على شفاههم وأعينهم، وأظل أتساءل عن سببها حتى أدرك حقيقة رفيقتي بوجهها وملابسها البالية!

شيء ما بداخلي يدفعني لاحترامها ، رغم نومها في الشارع متوسدة ذراعها، ملتحفة الجرائد، فاتحة ما بين ساقيها وهي نائمة على جانبها الأيمن في وضع معتاد من جميع نساء الأرض !... لكنها ينقصها الجدران الأربعة وأرجل السرير الأربع وقدمان بجوار قدميها ليكونا أيضاً أربعاً!

أين كانت قبل أن تأتي هنا مستقرة فوق الرصيف ؟!.. في منزل واسع كمنزلنا؟! ملئياً بالأهل والأقارب كما كنا في الماضي ، قبل أن يفوتني أخي الذي يقاربني في العمر ويتزوج ؟!... أم كانت تعيش في "عشة" فقيرة يرعاها البعض ثم هجروها ، مثلما هجرني أخي

الذي لا يزورنا إلا في المواسم؟!... لا!... لا يمكن أن تكون عاهرة، أو مجنونة لفظها أهلها بعد أن يئسوا من شفائها ونسوها.
تاوشني أفكار كثيرة ، ولم أستطع الوصول لتصور محدد يشفي ما بداخلي من تساؤلات محمومة ... رغم خوفي من تحقيق الحلم ، قررت الوقوف عندها محاولة الحصول على إجابة، ترجلت من الحافلة بجوار شركة الكهرباء كالمعتاد، ثم ت خطيت العربات مسرعة لعبور الشارع المحصور بين الشركة والمستشفى، تقدمت بخطوات وئيدة أحشد أسئلتي حتى لا ينفرط عقدها مني ، وعرجت نحوها وأنا أستعيد خطتي التي أعددتها، أخرجت من أعماقي ملامحي الطيبة، واستعدت نظرة عيني الحالمة، وحسبت نفسي رقيقة وحانية!

بدأت أقترب مرنها، ونبضات قلبي تسرع وعقلي يضطرب... وفجأة انحرفت قدماي بعيد اً، متحججة بعربة تعبر الشارع مسرعة ، فتفاديتها مبررة هروبي منها ، رغم إحساسي بانتظارها إياي وقد خيبت رجاءها.

لمَ لمْ أنفذ رغبتي؟ هل هو نفور مفاجئ؟ !... لا أعتقد، فقد اعتدتها على حالها هذه دوماً.. ما الذي انبعث داخلي؟! حتماً هو أمر غامض لم أستطع أن أفسره.

ما هي الحقيقة التي باعدت بيني وبينها؟ أهو خوفي من الوقوف على ما هو أكثر إيلاماً من حالتي ؟!.. أم أنني لم أقو على منازلة آلامها وأنا لم أواجه آلامي وأتحاشاها حتى الآن؟!

عدت إلى المنزل بعد يوم روتيني لا رحيق فيه.. اصطدمت بدماي التي احتلت غرفتي ، وسرت في جسدي رعدة رغم حرارة طقس أغسطس.. أسرعت نحو خزانة ملابسي الشتوية ، وأخرجت شالاً كي أضم به جسدي المهجور.

جلست القرفصاء على سريري وأنا منكسة الرأس، عيناي منكسرتان وجفناي مرتهدلان للأسفل، لا أفكر في سواها.. انزعجت من وضعي هذا ، فانتفضت واقفة ألقي بذلك الشال الشتوي ، أسرعت نحو خزانة أمي التي اعترضت على أخذي رداءين من ملابسها القديمة!... فقد تعودت تكديس كل شيء بنظام رتيب في خزانتها، وترفض التفريط في أي خيط من ملابسها!... وعدتها بإحضار ملابس جديدة كبديل ، فهدأت قليلاً و لكنها ظلت مغتاظة بعض الشيء!

لم أنم حتى تسلل أول شعاع للشمس عبر نافذتي ، فنهضت وارتديت ملابسي.. حملت الملابس القديمة وأنا أشعر بزهو خفي ، ولكن عندما وصلت إليها صدمت بمرآها، فقد قدت أسمالها من أعلى ثدييها مروراً بخصرها الملتحم بردفيها ؛ فانكشفت عورتها وساقاها المترهلتان!

كانت تجلس أمام المارة شبة عارية ، وقد كسر عينيها الذابلتين ذهول ولا مبالاة وشيء غامض حزين ودفين في أعماقها .. لم تكن تشعر بحرارة الشمس القاسية ، التي تلسع وجهي الذي رطبته بالكريمات.. كما أنها لم تكن تبالي بعيون الناس المتطلعة إلى جسدها بسخرية، وكأنهم يعلنون معرفتهم بالحقيقة!

اتجهت إليها وأنا ألعن عيون آلاف الشهود الحمقى ، ومددت يدي بالملابس فلم تعرني اهتماماً ... وضعتها بجوارها، وهرولت من أمامها نحو عملي ... عند عودتي لم أجدها ، لكني وجدت كيس الملابس ملقى حيث كانت.

اختفت "السيدة"... لكنها ذهبت وق د سلبتني شيئاً مهماً لم أستطع تحديده ، وتركت في أعماقي نظراتها الت ي لم تكف عن توجيه اللوم لي.. والتي رأيتها تشبه نظرة عيني عندما نظرت للمرآة ذات صباح!

ويعتليها جسد ميت

في كل مرة تدعو أ لا تصيبها بذوره بنطفة جديدة، لكنها كثيراً ما تصاب! فتدخل في دائرة محكمة الغلق لا تمل الدوران حولها ... بطن ينتفخ ثم يفرغ ما فيه ... جنين غير مكتمل ، أو طفل يلفظ أنفاسه قبل أن يرى ما يبدد ظلمة الرحم ، وآخر يتنفس غبار العالم أيا ماً قليلة ويرحل. اليد المعروقة المدربة تمتد نحو الثدي الأيمن ، تعمل أصابعها في الحلمة فتعركها ، بينما يهبط الفم يعتليه الشارب الكث على الأيسر ، يلوكه ويجذبه بأسنانه السوداء يميناً ويساراً ... تعلو حشرجات أنفاسه، واللعاب ينسال يبلل الثدي، ويصل للآخر فيصيبه بلزوجته.

تتململ بجسدها، وتحاول الزحف بمؤخرتها لتأخذ وضعاً مريحاً تحت جسده الثقيل، علها تغيب عن الوجود حتى ينتهي!

مازالت صورة وليدها الأخير تعشش بين أهدابها .. لم يمض كثيراً على غيابه، فصدى بكائه المعلول مازال يتردد في جوانب الحجرة ، هنا بين أجساد الصغار، ﻫﻮﺀ فتتقاذفه أيديهم مبعدة إ ياه حتى يناموا، فتعلقه بثديها ع لَّه يجد ما يلهيه فينام ... ظل يصرخ حتى تمكنت من اقتطاع بعض الجنيهات مما تطعم به الأطفال، وذهبت به إلى أحد الأطباء فأرسلها إلى مستشفى أبو الريش.

(آه)... حاولت أن يكون صوت تأوهها منخفضاً حتى لا يستيقظ أي من أطفالها الخمسة المتراصين أمامها، يفصل بينهم وبين البلاط لحاف، ويعلوهم غطاء صوفي قديم .. يداه الفظتان تقلبها على جانبها الأيمن، يمتص بفمه عنقها الناحل ، وكفه تجذب شعرها المتلبك... ألم يسري في أمعائها، قسوة الأيام الماضية، وبرودة بلاط الممر المعتم بالمستشفى أصابتها بإمساك يقبض أمعاءها... شهر كامل انقطعت فيه عن العمل في الحضانة، تحمل الوليد كل يوم من طلعة الصباح وحتى المساء، في انتظار الدور الذي قد لا يأتي في كثير من الأحوال... لم تفهم شيئاً عندما أخبرها الطبيب بصوته الذي يشبه ارتطام أوعيتها (الألمونيوم) - التي فقدت أشكالها منذ زمن! - بالبلاط: (الطفل مصاب بماء على مخه)... (وهل سيشفى)؟!.. قابل سؤالها بوجه جامد، لكنه بعد أن خط بقلمه منحنيات غريبة على دفتره، وجذب بيسراه الورقة ملقياً إياها على جانب مكتبه ، قال: (ربما.. تعالي غداً).

هناك في ذلك الدهليز الذي انقطعت داخله عن العالم شهراً كاملاً لا ترى حتى ضوء الصباح، في انتظار قرارات الأطباء علَّ هم يأخذون قراراً بشفائه من هذا الماء ... حتى أخذوه ذات يوم، وأخبروها بأنهم سيجرون له عملية، وغاب صاحب الأشهر الأربعة بين أكفهم داخل قبو أكثر ظلمة من الدهليز.. ولم يعد!

كفه الخشنة تعبث بمؤخرتها ، والكف الأخرى مازالت متعلقة بالشعر... الجوع يقرص معدتها فتتذكر أنهم ناموا دون عشاء!

منذ تركت الحضانة إلى دهليز أبو الريش ، لا يجدون ما يسكتون به طنين أمعائهم.. فهذا القائم عليها سحقاً ، يسحب بجسده مرة تلو الأخرى ما يتبقى لديها من قدرة على مواصلة الزحف في الأيام المقبلة... يطارحها الفراش ، ولا يطارحها الزحف لسد فوهة الجوع في أجساد الصغار!

لسانه يتلوى داخل فمها، يندلق لعابه داخل بلعومها فتبتلعه ومعدتها تمرع... وكلما سدت السبل أمامه ، وهي مسدودة دائماً ! يأتي ليسد أنفاسها بفمه الشره المفتوح كالجرح يلعق وجهها... لم يتغير كثيراً عن يوم زفافها بعد بلوغها الرابعة عشر ة من عمرها ، أمضتها بين طلمبة الماء وجحر أمها الذي تخبز فيه وتحضر الطعام لأبيها و إخوتها، لم تر شيئاً من قريتها عدا المنزل الطيني الذي تسكنه، وشريطاً ضيقاً معبداً للسير عليه ، تحاصره عيدان الذرة الطويلة أغلب السنة ... كانت تدب عليها بخفها البالي ، حاملة الطعام المصر داخل منديل "محلاوي" كبير تسلمه لوالدها، وتذهب لتجلس على مبعدة ترقبه وإخوتها أسفل أفرع شجرة الكافور ، لتجمع بعد أن يفرغوا من طعامهم الصحون الصاج الفارغة ، ثم تعود إلى جحر أمها من جديد.

تتذكر اليوم الذي طرق فيه القادم من القاهرة بابهم، فزغردت الأم وعلت فرحة النصر وجوه إخوتها وأبيها، وعندما استوضحت الأمر، علمت أن مكانتها سترتفع وتصبح من سكان القاهرة!

كان الرجل الذي زفوها إليه يحمل قسمات وجه أبيها وملامحه، وفي القاهرة، تلك التي كانت تسمع اسمها عقب عودة إخوتها من السفر للعمل ، في المواسم التي يتوقفون أثناءها عن الزراعة - أسكنها حجرة مدفونة تحت طوابق عدة تحوي شققاً واسعة ، دخلتها بعد ذلك لتنظفها فقط ، ثم تحمل منها بعض الجنيهات وبقايا طعام وملابس، تلقيها جميعاً في حجره.

صوت لذته يع لو، يصل إلى مسامعها فحيحاً ، تسري رعشة في جسدها المنهوك، فيوقفها بكفيه ضاغطاً على جانبيها ... تمر الأيام والرجل الكبير يصير شيخاً يعجز حتى عن الجلوس على باب البناية، فيذهبان بصغارهما بعيداً على أطراف المدينة ، حيث مقر الملفوظين منها، مع النفايات وطنين الذباب على جوانب حواريها وأزقتها.

وقفز إلى رأسها سؤال ، وهي مازالت تنوء بحمله وهو يطبق بكفيه على صدرها: (لماذا طردتني الحاجة أم علي من منزلها ، وصرخت في وجهي ألا أعود لخدمة المنزل والحاج زوجها؟ !)... طفرت دمعة من عينيها ، وتعجبت مما قالته أخت الحاج إن السبب هو الغير ة، فكيف تعمل على راحة الحاج ونظافة بيته أيام غياب الحاجة مغبونة

عند أهلها؟! رغم أنها لم تفهم ما تعنيه أخت الحاج ، إلا أنها حزنت على الثمانين جنيهاً التي كانت تحصل عليها شهرياً نظير خدمة الحاج وزوج ته، فلقد كانت تمكنها من توفير ثلاث (طقات) يومياً لأطفالها الخمسة... الآن لم يعد لديها سوى ستين جنيهاً تحصل عليها من الحضانة ، وبعض الجنيهات التي تتقاضاها عن مسح سلالم البنايات.

استطاعت أن تختلس النظر نحو ذكره ، تأكدت من حدسها؛ فمازال متهدلاً غير قادر على الاختراق وإطلاق شحنته ... أراحت رأسها على الوسادة المحشوة بقش الأرز، فمازال أمامها وقت طويل حتى يفرغ منها... (آه لو يترجل من فوقي لحظة، أعبئ فيها صدري ببعض الهواء)، رددت داخلها ، فاستجاب واستلقى إلى جوارها يداعب بكفيه ذكره، عله ينعظ فيستريح!.. لم يكن ليعترف أبداً بهرمه وع دم قدرته، فهو رجل وسيموت رجلاً ! لا تنسى ما كان يه مس به يوماً لصديقه الشيخ مصطفى ، إمام الزاوية التي تجاور ججرهم ، في ختام حديث خافت عن النساء: (يجعل يومي قبل يومه)!

داعب النوم جفنيها ، حاولت مقاومته حتى لا يصب الشيخ لعناته عليها في الصباح ، ويحيل أياماً كثيرة قادمة للسواد ... سحبت من أسفل الوسادة مرآتها المؤ طرة ببلاستيك أحمر ، وحاولت رؤية ملامحها عبر الأنفاق المظلمة المحفورة بين الورقة الفضية والزجاج... الأخاديد عرفت طريقها إلى وجهها ، احتلت مواقع عدة

أسفل العينين وعلى حافتي فمها ، منذ سنوات قليلة كانت بلا أخدود واحد، وبين أهدابها يسكن كحل المراود، الذي كانت تصنعه أمها ومازالت بواقيه في المكحلة .. لكن متى تضعه؟ !... ولمن؟! مصمصت شفتيها ، وألقت نظرة على الشيخ الذي اتخذ جانباً ، ومازال عاكفاً على محاولاته، دعت الله أن ينجح حتى تستريح وتنام!... (المرأة التي تعمل في الجرائد، وتحضر طفلها للحضانة كل يوم في ساعة متأخرة من ا لصباح، لم تعد تضع في يدي جنيهاتها الخمسة، لكنها مازالت تبتسم في وجهي وتحدثني كما لو كنت المشرفة... لماذا أوقفت نفحاتها تلك؟ !.. يوم سجلت اسم طفلها في دفتر الحضانة ، وجلست على واحد من الكراسي الصغيرة ، شعرت بشيء يداعب صدري ، ويزيل طبقات من الهموم المتراكمة فوقه... لكنها توقفت عن منحي الجنيهات الخمسة، ربما تحتاج إليها لتربية طفلها، أنا أم وأعرف)!

دس يده أسفل رأسها ، جاذباً جسده بذراعه الأخرى ليصعد فوقها ، تتلاحق أنفاسه فيحاول التقاطها ... يمد يده ويحشرها بين جسديهما، ثم يمسك بسلاحه الذي انتصب بصعوبة ويدفعه داخلها! ذراعاها ممدودتان إلى جوارها، تعض شفتها السفلي بأسنانها ، وتغمض جفونها لتمنع الضوء الذابل من أن يريها وجهه الذي يواجهها، تحاول أن تشوش على ذاكرتها التي تفرض ملامحه على عينيها المغلقتين... (يا رب)! هكذا قالت، ثم غابت عن الوعي في نوم أشبه بالموت، بعد أن انتظمت أنفاسها بمجرد أن زال الجسد الجاثم على صدرها!

سيرينادا الطفولة

المقطع الأول

كنا وحدنا دون باقي أطفال العائلة معروفين بالسمنة، نعشق الطعام ونتفنن في خلق أصناف لا يمكن لغيرنا أن يستلذ بها ؛ نمزج الحلو بالمالح، نصنع شطيرة من العسل الأسود والجبن ثم نقضم بلذة بين امتعاض واستنكار الآخرين وصيحاتهم !.. ونحن نضحك و نشفق عليهم، لأنهم لم يستطيعوا الوصول إلى لذة امتزاج الجبن بالعسل!

كنا دون باقي أطفال العائلة، و رغم سمنتنا المفرطة ، لا نهدأ أبداً حتى عندما يهجع الجميع ليلاً، نتسلل سائرين على أطراف أصابعنا، نحبس بأكفنا الضحك حتى لا ينفلت، و عندما نصل إلى الشرفة نلعب بأوراق الكوتشينة التي كان يصر على تعليمي فنونها دون جدوى.

في شارع منزله ركب دراجته، واستعرت أنا دراجة أخته التي فضلت البقاء مع فتيات العائلة .. لعبنا مع أبناء جيرته لعبة الطريق ، فقام واحد بأداء دور شرطي المرور ، ورسم بطبشورة خطاً قسم به الشارع، بينما يده تقبض على صفارة قائلاً : (إذا صفرت فعليكم

بالوقوف و عدم تخطي هذا الخط الأبيض ، ومن يتخطاه يدفع الغرامة).. ثم قمنا بجمع أوراق الشجر لتحل محل النقود!

انطلقنا في لعبتنا نحذر بعضنا بعضاً من غفلة الوقوع في الخطأ ، فأصرخ فيه محذرة أو يصرخ بدوره فيّ ، لكنني تخطيت الخط الطبشوري رغم ذلك ، فما أن رآني حتى وضع قدميه على بدالي الدراجة وقادها متخطياً الحدود ليبقى معي!

في المساء وعندما تبعدنا الدراسة شهوراً كنت أتذكره، وأغيب مع صورته في نوم هادئ ! أحدثه وأقص عليه ما يحدث في المدرسة ، حتى موعد لقائنا في بلدتي الصغيرة أو حيث يقطن فيّ القاهرة.

كان تجمع العائلة في الأعياد ، غالباً ما يكون في بلدتي ، فنستأجر الدراجات وأنطلق معه و باقي أبناء خؤولتي في الشوارع و بين الحقول، وكنت أتعمد استئجار دراجة لمدة أقل من التي يحددها هو، حتى تكون ذريعة للجلوس أمامه على دراجته! كان مرور ذراعيه على خصري والتصاق صدره بظهري يزرعني في عالم لم أكن قادرة على تحديده ، لكنني كنت أستشعر دفئه وعبير أنفاسه و أتلذذ بجواره، مخزنة كل ذلك ليكون زادي عندما يغيب.

في الشرفة رفع سماعة تليفونه الملون ، وأدار قرصه مشيراً إلي كي أرفع سماعة تليفوني ، فامتثلت لإشارته ، عندها قال :

(تتزوجيني؟!)، حينها فارت دمائي وانبجس الدمع من عيني وأجبت: (نعم)... ضحك وضحكت، ولا تزال ضحكاتنا تتردد في أذني وأنا أغيب عن عالمي في أيامي الماضية.

والسؤال الذي لا يمل التردد داخلي : (عبث الطفولة الذي يأتي مع غياب العين عن الملامح الآنية ، في عبير الماضي المحمل بألق غضاضة القلب، قبل استكناه الألم .. ألم يكن حباً؟!).

فاصل

كان كظلي.. يتبعني حيثما أذهب في شارعنا وكل شوارع و طرقات بلدتي الفشن؛ ورائي وأنا أقضي حاجات أمي من دكاكين البقالة ، ينتظرني بعيداً ح تى أفرغ من شراء الحوائج ، ليعود و يسير خلفي بخطوه الوئيد ذي الث قل المحسوس على الأرض ، فأتمهل في سيري حتى لا يفقد أثري بين الزحام و سيل المشترين، في ذروة ازدحام السوق وافتراش الباعة الغبراء بمشناتهم ، منهمكين في جدل الفصال والبيع والشراء.

وعندما أخرج مع صديقاتي عابرات الجسر الصغير، الذي يصل شرق البلدة بغربها عبر ترعة الإ براهيمية، أشعر به خلفي أو تصطدم عيناي بمرآه، فأستدرك تلعثمي وارتباكي و أعاود الضحك والحكي

مع الصديقات بأداء تمثيلي، حيث أغيب مع دقات قلبي التي تتسارع محدثة ضجيجاً فوضوياً متخيلة صوراً تجمعنا وحدنا ، تزحم رأسي ، وتسدل الستار على عيني ، فأصبح واقفة على الحدود بين اليقظة والحلم.

في طريقي إلى المدرسة كان أيضاً ورائي أو إلى جواري، يحاول أن يوصل إلي بعض الكلمات عن طريق حديثه مع زملائه ، في طريقهم إلى مدرستهم المجاورة لمدرستي (الإعدادية بنات)، فأتعثر وتتصيدني حجارة الطريق، وينتفض العرق متفجراً من مسامي ليبلل جسدي في ذروة برد الشتاء. عندما أصل إلى مدرستي أجري عابرة البوابة حتى أتخلص من ارتباكي ، لكنني بسببه كنت أفقد الحصة الأولى فلا أستوع ب شيئاً ، حيث أغيب في رؤيا تجمعنا، غالباً ما كانت تبدد من يقظتي ساعة!

وبمرور الأيام تحول إلى واحد من أسراري ، التي أتفنن في نسجها وإخفائها عن أمي ، خا صة عندما أعلنت لنفسي ذات مساء ، وأنا أجلس في الشرفة مع بداية اشتداد حرارة الصيف: أنني أحبه!

المقطع الثاني

لم يكن يدري و أنا أتشاجر معه في مكتبة الفشن الثا نوية المشتركة، أبادله الشتائم وانفلات الأذرع، أنني أقاوم انجذاباً شديداً نحوه، واعترافاً ينازعني للخروج نحو رحابة فناء المدرسة . لم يكن يدري سر بكائي في مكتب الأ خصائيين الاجتماعيين، حينما كانوا يحاولون إصلاح ما أفسدناه ، أنني أبكي عليه و ليس ندماً على ما حدث! لم يكن يدري أنني أخاف تلك العينين اللتين تضيئان وجهه ، وتتحدياني بصورة سافرة، تخترقان عظامي، وتحاولان هدم أسواري التي أقف حارسة عليها، أقيم ما تهدم بهدوء دون عناء.

وجه أسمر لا يمكن أ لا تفغر شفتا أي فتاة في العالم حين تطالعه، وعينان تظللهما شعيرات سود متكاثفة تأتلف السكنى عند طرف الجفنين، فإذا ما زاد التوغل في الأغوار يبهرنا ضوء عسلي شف يف يتسلل بهدوء، ليكشف ما تكنه فتيات المدرسة خلف النهود الصغيرة من أسرار كلها تحكي عنه ! وعلي وحدي كان يركز هما، ووحدي كنت أقاوم الوقوع في الأسر ! لكنني كنت عندما أعود للمنزل أغلق

على نفسي باب حجرتي ، لأفك أسر دموعي ، وأقسم أنني مثل فتيات المدرسة وأكثر!

كنت أحمد الله الذي جمعني وإياه في اتحاد طلاب المدرسة ، فلولا هذا الاتحاد ما اجتمعنا ، وما تسنى لي أن أسمع صوته وأحادثه وأقف وإياه لنقول أي شيء. كنت موقنة من ميله نحوي ، لكنني كنت أستتر وراء رداء خشن ، وأحتجز أنوثتي خلف قضبان حديدية فظة، حتى لا أقع في دائرة الاستنكار والاستهجان، وإدراجي في قائمة المشبوهات الخارجات عن أعراف و تقاليد البلدة ! كانت مشاعري تجاهه تؤلمني، وتضعني لأول مرة في مواجهة مع شيء لم أكن أعرفه من قبل ، ولم تكن له حدود أو مسميات أؤطرها داخله.. فقط أقاوم الجذب الذي يتوالد بين مجالينا بمجرد رؤيته ، لعلمي أن هذا الشيء محرم في بلدتنا!

عندما غاب عن ناظري تشرذمت وتناثرت، ولم أكن قادرة حتى على طلب النجدة، فقط أتحسس أخباره بأذني التي تحولت إلى محطة استشعار، تلتقط كل ما تردده فتيات المدرسة عنه ... حتى تراكمت الأيام ثقيلة على صدري، تهمُني وتعزلني عن عالمي، حتى تحولت رؤيته إلى هدف أنىَ لي الوصول إليه؟!

ذات يوم تسربت معلومة تفيد بأنه موجود في تلك اللحظة في مكتبة المدرسة، حينها قفزت عابرة الممر المقابل للفصل ناهبة

درجات السلم، فتعثرت قدمي ملتوية أسفلي على الطرقة الفاصلة بين شريطي السلالم ، لم أعبأ بالألم و نهضت مكملة طريقي نحو المكتبة، دافعة بابها بنفاد صبر الأيام التي مرت مبددة الأمل في لقائه، ودون أن ألتفت إلى أمين المكتبة أو أصدقائه الذين يحيطون به، سألته: (أين كنت؟!)، كانت عيناه معلقتين بعيني حين أجاب : (كنت مريضاً)!... حينها فقط أدركت ما صدر عني، فقد ترك الجميع المكان لنا ومضوا.

قلمت الأسوار و اعتلتني أسلحة الدفاع عن الغزو ، كاسية حبالي الصوتية بطبقة غليظة فقلت : (الحمد لله على سلامتك)، استدرت لأرحل وأنا أسمعه يقول : (حرام عليكِ).. اخترقتني الكلمة مضيفة إلى ألم قدمي جبالاً من الحسرة ، لكنني مضيت أجر قدمي التي ألزمتني الفراش مدة أسبوعين.

والسؤال الذي لا يمل التردد داخلي : (عبث الطفولة الذي يأتي مع غياب العين عن الملامح الآنية ، في عبير الماضي المحمل بألق غضاضة القلب، قبل استكناه الألم... ألم يكن حباً؟!).

<u>فاصل</u>

في يوم من أيام إجازتنا السنوية من الجامعة التقيته، جلسنا على مقعد حجري من تلك المصفوفة بطول كورنيش النيل ... كانت الشمس تهبط خلف ظهرنا ، رامية بأشعتها المودعة على المياه، آخذة في عباءتها ضوء النهار، وكانت قدماي ملتصقتين بالأرض، رغم كسائها الباهت ودعوة المياه الملونة بالشفق.

حركات رأسي الآلية دفعته ليسألني عما يدور بداخلي، لكن أجبته بردي المعتاد ... هذه (الأبداً) التي لا يؤمن بها و يصر على تجاهلها! ملمس كفه الندية لكفي أثار رغبتي في البوح، لكن تملصت هاربة نحو التاريخ، تاريخ صداقتنا الذي يعود لأول يوم جمعتنا فيه الجامعة داخل حرمها الذي لفنا في طياته، عازلاً إيانا عن عالمنا الذي جئنا منه، و صداقتنا التي تزداد قوة مع الأيام، ولا يمكن لنا تخيل النهاية لها. فتح الحديث شهيته فانطلق يتذكر الأحداث التي جمعتنا، ويضحك من خوف كل منا من الآخر ، وارتعاشنا من فكرة الصداقة بين فتى و فتاة، بعد أن كان ذلك محرماً في بلدتينا الصغيرتين، وكيف كنا لا ندري شكل الحديث الذي يمكن أن يدور بين صديقين ينتميان إلى عالمين متضادين ... وفجأة توقف عن التذكر ، متداركاً انفلاتي من بين قبضتيه ، فأورب بوابة الذكريات و عاد إلى نفسي.

شكوت إليه التباس مشاعري نحوه فلماذا أحبه الآن ، وهو الصديق الأبدي؟! ولماذا أبكي على معنى لا أستطيع فهمه؟! ولماذا أخطه في دفتر "شخبطاتي" معنونة إياه بالحبيب؟!

أسئلة تلقاها بنفس الكف الندية الرحيمة، وتشاركنا في حل لغز علاقتنا التي التبست عليه أيضاً . عندما اختفت أشعة الشمس وودعت السما ء، كنا وصلنا إلى الشاطئ الآمن، وعندما عدت لدفتري في ا لمساء أمسكت بالقلم، ولونت الصفحة البيضاء بحبري الأزرق: (ستظل دوماً صديقاً أعشقه، ويتلقاني في محطات الانكسار).

المقطع الثالث

في تمام الساعة الثامنة مساءً تغلق المدينة الجامعية أبوابها.. كنت أنا و هو نسرع خطانا و نتوسل لعجلات الحافلة أن ترك ض، ونرجو العربات المتداخلة في الشارع أن تفك أسرنا لنلحق بالأبواب قبل أن توصد! عندها كان يودعني فأتركه راكضة أعبر الأبواب بخطى لاهثة. كل يوم تتكرر نفس التفاصيل ، بعد أن تشبع أقدامنا من السير في شوارع القاهرة القديمة ، بين الأزهر والحسين والموسكي و عتبات المساجد والكنائس العتيقة، نتلمس فنون الأجداد التي ألفّت بيننا. (وشم على الذقن ، وخطوط استوت على الجفنين ، تسحبهما شرطة سوداء تحمل سحر اكتحال الليل بالنجوم ... وفوق الرأس

غطاء أخضر يوشي أ طرافه خرز ملون بألوان قزحية ، تنازعه في موضعه خصلات شعر تحاول الهرب من قيده ، وتستنفر باقي الشعر الأسود أن ينسدل على الكفين ويفعل مثلها)!

من أمام هذه اللوحة كان لقاؤنا الأول ، ومن أمامها تسابقت خطواتنا نحو معارض الفنون التشكيلية، ومتحف الفن الحديث ومحمود مرختار وجمعية محبي الفنون الجميلة... وتألقت لقاءاتنا أكثر بين ردهات دار الأوبرا و مسارحها، ننصت لغناء فرقة الموسيقى العربية ، وسيمفونيات أوركسترا القاهرة ، ونمتلئ نفسانا بجمال عروض الباليه. معه عرفت معنى السباق ، فقد كنا نتقافز بخفة فوق أسطر الكتب، ثم نتبادلها و نناقشها في ندوة لا تضم سوانا . ومعه وقعت في غرام مقهى الفيشاوي ، ورائحة تبغ الشيشة المعتق في الجدران، والتكوينات العفوية المشكلة من تراقص دخان المعسل المزفور من الأنوف و الأفواه، صاعداً يغشي أعيننا عن عالم ما خارج المقهى!

كل يوم تمور داخلنا آلاف الحكايا و الأحلام، ويستدرجنا الأدب والموسيقى و الفن داخل ردهاته التي بلا نهاية ... حتى قالها : (أحبك)، مصحوبة بقصيد ة خطت في عشقي . ومع الحب انتقلت أقدامنا إلى بلاط كورنيش النيل وكازينوهات القاهرة، نرشف العصائر ونتبادل جمل الحب والتنهيد. ضاعت ملامح الأوبرا والأزهر والحسين وقهوة الفيشاوي ! فلما نادوني لبيت ، وضاع هو مني وغاب عن أيامي، وأصبحت قدماي وحده مرا ه ما اللتان تلهثان، لتلحقا بأبواب المدينة الجامعية قبل أن توصد!

والسؤال الذي لا يمل التردد داخلي : (عبث الطفولة الذي يأتي مع غياب العين عن الملامح الآنية ، في عبير الماضي المحمل بألق غضاضة القلب، قبل استكناه الألم... ألم يكن حباً؟!).

الشارقة 2001

هكذا هي اليوم

شقت كتلة الأوراق طريقها إل ى أسفل في خط عمودي .. رغم المسافة القصيرة بين كفها التي تشد الأرض وسطحها، إلا أن ارتطام الأوراق بالصلب دوى في عقلها، وقلب الصفحات المتناثرة السطور داخلها رأساً على عقب .. وقبل أن تمضي في هدوء لم يلحظه من حولها ، أدارت وجهها نحو زملائها المتداخلة أجسادهم في حركة غير منتظمة، وطيبت أناملها خاطر دموعها المنحدرة على خديها، ثم مضت والخيبة تلاحقها كما اعتادت منذ استنشقت دون إرادتها هواء بلادها.

السير على الأقدام خير وسيلة للمواصلات في هذا البلد ، لكن التخبط بالأجساد المكدسة في الشوارع كثيراً ما يزعجها ، التقطت عيناها كلمات مكتوبة على (يافطة) معلقة داخل مستشفى الجلاء (تنظيم الأسرة راحة لك ولطفلك).. طفرت ابتسامة على وجهها سرعان ما تشرذمت وانتهت! قدم للأمام تلاحقها الأخرى في تثاقل لم تتعمده.. وتعجبت كيف مر كل هذا الوقت ولم تبلغ بعد كوبري 15 مايو؟!.. نظرت إلى ساعتها ، فاكتشفت أنه لم يمر سوى خمس دقائق منذ تركت جمع المتجمهرين من أجل الوطن..!
عندما أتى اللندني حاملاً صليبه على كتفه ، عابراً القارات ليجمع تبرعات للعراق المنكوب! داخل حافلته الضخمة التي منحها له أمير عربي يحمل بئر بتروله عل ى كتفه !.. لم يكن أمامهم سوى حمل

الحناجر كالعادة، مستغلين الفرصة ليصيحوا بتأوهاتهم المعتقلة داخل صدورهم.

شعرت بظهرها يرتمي للوراء وقدمها تخطو بمشقة، بينما تطن عجلات العربات في أذنها، فأدركت أنها وصلت إلى الكوبري !.. كانت قسوة الإسفلت والمازوت الجامد تصهر قدميها، رغم رحيل الشمس منذ ساعات...

لم يكن أمامها بديل، إما السير على الكوبري أو إلقاء نفسها في النيل.. توقفت ونظرت عبر السياج الحديد ي، الفاصل بين الأرض المعلقة والهواء السابح فوق الماء .. ثم قرأت الفاتحة لكوبري أبو العلا، الذي رحل حاملاً معه ذكرى حبيبها الذ ي ضمها إلى صدره عليه، وهمس من فوقه (أحبك)، فشهدت قوائم الكوبري وأرضه الخشبية وحشائش النيل وأسماكه عليهما.

عربات فاخرة تلتحم بأخرى لم تعد تعرف الفخر !.. تزاحمها أجساد فتية، تحمل على أذرعها تلاً من الأوراق، بينما تتسابق أكف الأذرع الأخرى في تقليلها؛ بإلقائها داخل العربات، ولصقها بأيدي الناس في الشوارع.. ولا مانع من إطلاق الأصوات : (عاش العراق.. فلسطين عربية.. قلوبنا مع جنوب لبنان)، وربما أخذتهم "الجلالة" وصرخوا بحقد دفين: (الجولان لنا وواشنطن إن أمكنا)!.. كان صوته مصبوغاً بالحماس كعهدها به منذ كانا في الجامعة: (لابد من استغلال

الحدث جيداً).. وكان الصمت جوابها كعادتها أيضاً منذ الجامعة ، لكنها أجابت هذه المرة وهي متثوبة بسواد فقد حبيبها الأول (مريم المجدلية!).. وذلك عندما انطلق سارداً قص ة النبي اللندني الذي يدعى (جالوي)، الراكب مع قديسي الغرب حافلة تحمل اسم الطفلة العراقية (مريم)، التي أعدمها الحصار... بعدها استرسل في حديثه المتعطش دوماً للثورة (لا بد أن نحرك الناس نحو رتق المزق العربية.. يجب أن تستيقظ مصر!).

عاودها حماس أيامها الأولى في الجامعة وهي تجلس بينهم .. شفتاها مطبوقتان، فقط تتلقى التعليمات التي يجب أن تتبعها، لكن شيئاً ما يشوب الحماس داخل صدرها هذه المرة.. فها هي تعود لنفس الطريق الذي تتحاشاه منذ زمن، تطاردها ذكرى الشعور بالندم عقب كل محاولة للتظاهر... الندم... حيث يفرض سؤال واحد نفسه عليها : (ما النتيجة؟ .. هتاف.. غضب.. شعارات عديمة الجدوى، ثم يعود كل إلى د اره.. ننام ونأكل ونرجع لسهراتنا الفلسفية القابعة في برج عال.. ندشن ثرثراتنا بزجاجات البيرة التي تقيأت ما فيها في أجوافنا، فنعاقبها بإلقائها على الأرض .. تجاور أعقاب السجائر، وتتحد في رسم أصدق لوحة سريالية في عصرنا .. نسب النظام ونتطاول على الإله ! ولا ننسى في نهاية الليلة أن نبصق على أمريكا وإسرائيل ، وسحابات دخان المارلبورو تظلل رؤوسنا! بينما يخفف بعضنا حدة الخمر بالكوكاكولا .. وتنتهي الليالي

بالهرولة نحو علب الكبريت التي نقطنها !... تتمدد الأجساد على الأسرة... وتداعب الأيدي نساء مسجيات جوارها).

"مصر الثلاثة أحرف الساكنة اللي مالية الدنيا ضجيج"!

هكذا كان يردد دائماً قول جاهين المهزوم ، عندما يضيق بها الحال وتشعر بلا جدوى الصياح والتجمعات .. كان يتمتم بتلك الكلمات ، وكأنه يسبح ويبسمل بادئاً يومه ! ثم ترتفع أنامله لتطبق شفتيها التي تلعن فيها أبا الوطن وأبا من زرع عشقه في قلبها !.. يربت على كتفيها بكفه ، ويجمع بالأخرى أصابعها جاذباً إياها نحو النيل .. يقف ماداً ذراعيه عن آخرهما ، ويدعوها أن تحاكيه وتحتضن الوطن .. تبث همومها إلى النيل الذي حمل آلام أجيال كثيرة مضت، جارياً بها نحو البحر ليلقيها، فتذوب مع ملح مياهها.

وظل كذلك حتى فقد الحياة بين ذراعيها داخل حرم الجامعة، شقت رأسه العاشق واحدة من تلك القنابل المسيلة للدموع.. نزفت دماؤه أمام العسكر دون أن يعيروه اهتماماً !.. وراح.. راح من أجل .. (الله يلعن أبو الوطن)!

توقفت قدماها على بلاط رصيف الكيت كات .. الكل يركض من أ جل اختطاف مقعد داخل عربات (الميكروباص).. وعلى غير عادتها ظلت واقفة، لا تحاول الركض من أجل اقتناص مساحة خالية في إحدى

العربات.. فهي الآن لا تشتهي العودة .. العودة إلى حيث يرقد جسدها على فراش لا تنتمي إليه ، ولا تشعر بدفء أغطيته وتآلف ملاءاته مع جلدها .. فراش لم يزره الحبيب مرة ولم توشوشه أنفاسه.. العودة إلى منزل حيث أهل لم يعودوا كذلك .. يشاركونها في المكان، ولا يدركون نبض قلبها وإشارات عقلها.. العودة إلى بناية ذات عشرة طوابق، لا تعلم عن طابقها الذي تسكنه شيئاً! وشارع يتعمد عرقلة مسيرها دوماً بأحجاره وأرضه المتعرجة!

ظلت واقفة "كخيال المآتة"، ينفض البشر من حولها ليركبوا العربات، التي كادت أن تنقطع عن المجيء، لولا تنبهها في آخر لحظة وقفزها داخل عربة استقرت أمامها مباشرة!

اقتحم الهواء النافذة برفقاته المدخنة، مصطدماً بوجهها، فمدت يدها تغلق الزجاج .. وقع بصرها على ا لأجساد المتحركة في الشارع وهي تضيع سريعاً وراء العربة، دون أن تبدو لها ملامح محددة.

قبل ساعات مضت كانت تركض عبر العربات في شارع رمسيس، تلقي المنشورات داخل السيارات ، وتوزعها على المنتظرين داخل محطة الأتوبيس.. يقرأها البعض ويلقيها آخرون غير عابئين بحرف داخلها، ويسخر منها الناس أحياناً أو يهتفون من أجلها، حتى تغيب عن أنظارهم فيعودون إلى ثباتهم السابق .. أوراق تتطاير وتهوي مع الهواء الراكد على الأرض، تطؤها الأحذية.. وطفل يرفل في أسماله،

ينحني على الأرض يجمع ما كساها من أوراق ملونة ومصقولة ليضمها إلى صدره.

إلى حيث تسير يسير .. ويركض حين تركض، حتى توقفت ونظرت إليه متعجبة، فلم يأبه بنظراتها التي ترشق جسده الضئيل ، وقال لها: (أعطني أوراقاً كثيرة مما تحملين.. الله يخليك).

الركاب يتناقصون.. كل دقيقة تمر يسقط معها أحدهم أمام مأواه ، والعربة تخلو من حولها حتى لم يعد غيره!.

نظرات السائق عبر المرآة أعادت صورة الطفل أمامها مرة أخرى، وهو يرجوها أن تعطيه ما بيديها من أوراق .. وعندما تساءلت عن السبب أكد لها أن الغلابة كثيرون ، وما في يديها من أوراق مقواة سيعزلهم عن قسوة بلاط الأرصفة!
العربة تنطلق مسرعة على الطريق .. والظلام يسود كل شيء ويمحو معالمه .. لم يظهر أمامها سوى خيال لزرع يترامى على جانبي الطريق.. تنبهت إلى أن العربة تجاوزت محطتها الأخيرة بكثير، وقبل أن تفتح فمها مستفسرة ، أوقف السائق العربة مترجلاً خارجها، ثم اتجه نحوها وعيناه تعيدان سرد ما كان يردده الطفل!

الجسر

"انتقل صالح إلى رحمة الله .. نرجو الحضور فوراً".. مرت عيناه على الكلمات سريعاً ثم ألقى بورقة التلغراف على طرف مكتبه . زاغ بصره أو امتد لآفاق لم يدركها من حوله ، شعر بيد تربت على كتفه وكلمات تتساقط على أذنه «البقاء لله.. لا تحزن.. هل كانت صلتك به قوية؟!».. تعجب من السؤال ، ونظر باستياء إلى زميله الذي التقط التلغراف في غفلة منه، ثم مد يدي ه جامعاً أوراقه المتناثرة على المكتب، ونهض بسرعة محدثاً ضجيجاً عابراً بمقعده الذي ارتد للوراء مصطدماً بالحائط.، أدخل المفاتيح بثقوب الأدراج وأدارها دورتين في كل ثقب، ثم انتزع ورقة التلغراف من يد زميله ومضى دون أن يع ي دهشته اهتماماً!

اتخذت قدماه وجهة النيل حيث يقف الكورنيش حائلاً دون مياهه والبشر.. توقف للحظات وأخذ ينظر إلى المياه، كفاه تلمسان الحائط القصير المشيد على جانبه ، استشعر بأصابعه ملمسه الحجري فارتدت منزعجة من صلا بته وهمس متسائلاً: "هل يمكن أن يصدق أحد أنك حلم عند إنسان؟!".

ارتجفت ابتسامة على شفتيه ما لبثت أن تراخت وحل محلها ارتعاشة ألم، تبللت في التو بدموع سالت من عينيه . ظل لبرهة يشك في رغبته في التوجه إلى محطة القطار .. كان متيقناً من

خوفه أن تطأ قدماه تراب قريته، وأن تعاود وجوه أهله مصافحته.. لكن شيئاً ما كان يفكك قبضات همِّ العودة، مؤكداً أنه قد حان وقت تحقيق الحلم.

أخذ يحسب السنين التي مضت دون أن تملأ رئتيه رائحة قصب السكر المنتصب بعيدانه في الحقول .. داعبه نسيم الذكريات، لكن رفضه للعودة أزاح الذكرى وأرجعه لتج اهل قريته بكل ما يأتي منها ، حتى تلك الخطابات التي تنضح باللوعة والأسى.

"هل كان فشلي في تحقيق الحلم سبباً لهجرتي هذه؟.. ومتى شعرت بالانتماء إلى غبار القاهرة؟!".

تواردت الأسئلة على عقله دفقة واحدة ، حتى داخله فقدان لاتزانه، فاستند مرة أخرى إلى جدار الكورنيش، تثاقلت رأسه فأراحها بين ذراعيه المنعقدتين على حائطه القصير .. وبين ثانية وأخرى حسم أمره ونهض كأن قوة لا يعرف مصدرها تلبسته .. استدار نحو السيارات المتسابقة، مشيراً إلى واحدة من عربات الأجرة.. ولم يدر بنفسه إلا وهو مستقلاً قطار الصعيد.

ملامحها لا تختلف كثيراً عن ملامحه، تلك البشرة الموغلة في السمرة.. وإن كان لونها أفتح قليلاً لعدم التقائها بالشمس إلا في ما ندر.. حين تصعد إلى سطح الدار الطينية لتطعم الطيور الراتعة بين

القش والبوص، أو وقوفها على الباب غارقة في ثياب سوداء تغمرها من قمة رأسها وحتى أطراف قدميها .. لا يذكر طبيعة شعرها ، فهو لم ير ضفيرتيها إلا وهما بعد طفلان لم يتجاوزا العاشرة.

أما عيناها فيعلم عنهما كل شيء .. مليئتان بالرغبة في المعرفة ، ومغرقتان في تساؤلات لا أول ولا آخر لها .. تحب الحياة وإن لم تقبل عليها أبداً.

كانت تنتظره في شوق كل يوم وهو عائد يحمل حقيبته القماشية المحملة بكتب المدرسة، لتسأله عما قالته «الكتبات» اليوم، فيخرج كتاب القراءة ويذهب معها بخياله بعيداً ، ليصور لها أشياء لم تحملها السطور المخطوطة على الأوراق أبداً.. كانت لديه قناعة أن فتيات العائلات الكبيرة لا يخرجن من الدار ، لذلك لم يسأل يوماً: «لماذا لا تذهب أفكار إلى المدرسة؟».

وفي يوم الجمعة عندما يعبر ترعة الإبراهيمية فوق الجسر، في طريقه إلى الجامع المقابل له على أطراف القرية ليؤدي الصلاة مع والده وأعمامه، فيتجهون أولاً إلى آخره هابطين إلى مياه الترعة ليتوضئوا.. كانت تسأله بلهفة عن شكل الماء وهو معبأ داخل مجرى بالأرض، وكيف يقفزون من فوق الجسر وينزلون إليه .. فيقف متفاخراً يحكي لها عن أحداث خرافية، لكنها كانت تضرم الرغبة في صدرها أكثر لرؤية الجسر.

سحب الهواء المختلط برائحة السجائر ثم زفره، عقد ذراعيه على محيط صدره ثم تراخى بظهره للوراء مشبكاً قدميه بعضهما ببعض، ومسدلاً جفنيه، بينما تداخله رغبة في النهوض ليشرح لمن حوله كم من الوقت يستغرق الذهاب إلى الجسر ، الذي لا يبعد عن دارهم سوى شارعين، هما في حقيقة الأمر ممران ضيقان ! حتى يذهبوا جميعاً إليه.

كانت الزغاريد العابثة في أنحاء دارهم عندما حصل على الشهادة الإعدادية تحمل أكثر من معنى.. فقد كانت الأسرة تستعد «لتستير أفكار».. لم يكن يعلم حقيقة أمر هذه الزغاريد المجلجلة التي لا تهدأ، حتى دخل لأول مرة ليجالس الكبار في القاعة التي لا تدوسها أقدام الحريم إلا لتنظفها.

أخذ والده الذي يغوص داخل جلبابه الأسود الفضفاض وهو يستند بجسده على كفيه القابضتين على العصا، يتفاخر بأن ابنته لم ترها عين حرمة غريبة عن العائلة ، والضيف الجالس قبالته يؤمن برأسه صعوداً وهبوطاً، بينما اعتلت وجه «صالح» ولده ابتسامة عريضة ظللها شاربه الكث، في حين لم تكن عيناه متضامرتين مع شفتيه!

عندما هم بالسؤال عن سبب ذكر «أفكار» في مجلسهم، خبط والده بكفه على ظهره، مؤكداً أنه أصبح رجلاً، وأمره أن يضع يده في أيديهم لقراءة فاتحة «أفكار» على «صالح».

كان يعلم أن أخته قد أكملت الثانية عشرة بالكاد ، وأربكه شعور اقتراب فقده لها .. لكنه لم يستطع ا لاعتراض وهو يخطو أولى خطواته في عالم الرجال .. كانت «أفكار» آنذاك تجلس في صحن الدار، تحمل في كفها اليمنى حبات الذرة، وتضغط بيسراها على «دكر البط» الذي تحصره بين ساقها والأرض.

فذهب إليها عاقداً عزمه على أن يجعلها ترفض ، لكن الكلمات لم تستطع الخروج من بين شفتيه عندما نظرت إليه وفرحة تغمر صوتها وهي تقول: «تفتكر جابوا لي دكر البط من وين انهاردة بعدما دخت عليه؟!».. ولم تمهله فرصة للتفكير، فقد أجابت سريعاً وهي تدس الذرة في عنق الطائر بحماس: «من عند الجسر.. يا بختة!».

كان الجسر هو ش غلها الشاغل، تترقب كل من يدخل إل ى الدار لتسأله «هل مر من جوار الجسر؟ »، وعندما تخلو بنفسها بعض الوقت تلتقط بوصة وتخط على أرضية المنزل الطينية خطوطاً غريبة ، ثم تسأل بأسى "هوه ده الجسر مش إكده؟!"..

أفاق على عامل البوفيه بالقطار وهو يسأله مصراً إن كان يريد بعض الشاي، فتح عينيه ونظر له بوهن ثم تساءل عن أي المحافظات وصل القطار، فأجابه أنهم أوشكوا على دخول المنيا، ثم عاد ملحاً يسأله عن الشاي.. هز رأسه موافقاً ، ثم اعتدل في جلسته ورفع يسراه أمام عينيه ليعرف الوقت ، تثاءب وأخرج ورقة التلغراف من جيب سترته.. ثبت نظره عليها ثم قال عبر تنهيدة طويلة : «صالح مات».

لم يستغرق الإعداد لـ «شوار» «أفكار» سوى بضعة أشهر.. كانت أمه تشرف على كل شيء بنفسها ، دون أن يداخلها أي إحساس بلوعة فراق فتاتها الوحيدة، فقد كانت تردد دوماً وهي تكدس الملابس والأقمشة بالصناديق ، أن الله يح بها ولن يأخذ منها «ضناها»؛ فسوف «تتستر أفكار في بيت العدل » الذي يواجه دارهم، لدرجة أنها تستطيع أن «تصبح وتمسي» عليها من النافذة.. وكان كل ما يشغل «أفكار» آنذاك هو ما أخبرتها به أخت «صالح»، أنها يمكنها أن تطل على الجسر من فوق سطح دارهم، مما دفع ها لأن تعجل من أمر إتمام الزواج ! وحرضت أمها على أن تلح على والدها بألا يجادل كثيراً في أمر المهر والشبكة والمؤخر!

انبثقت دمعة من بين أهدابه المغمضة، فرفع كفه ليمحوها بأطراف أنامله قبل أن يلحظه جاره في مقعد القطار ، داخله الخوف من خذلان أخته للمرة الثانية، وألا يتمكن من تحقيق الحلم.

عند اقتراب موعد الزفاف تفج رت داخله فكرة شعر معها بعبقريته ، ذهب إلى «أفكار» وسألها بماذا تكافئه لو مكنها م ن رؤية الجسر قبل زواجها ... حينها طل نور مبهر من عينيها السوداوين ، وقفزت بخفة من فوق السرير النحاسي فأصدر أ زيزاً خيل إليه أنه زغردة قلبها، أخذت تدور على عقبيها وترفع ذراعها لأعلى ثم تهوى بكفيها على فخذيها.. تضحك وتضحك حتى داخله قلق عليها ، فجذبها من ذراعها وسألها بلهفة «مش عاوزة تعرفي كيف؟!»، وعندما لم تجبه اندفع خارج الغرفة متجهاً نحو والده، الذي كان متربعاً فوق المصطبة أمام الدار، يجذب بفمه دخان «الجوزة» ويشاركه والد «صالح» في الأنفاس.. كل ما يذكره تلك الصفعة التي كادت تحطم فك ه، وسباب والده ورميه بـ «النسونة»، فكيف يفكر في عرض شرفه على الناس؟! ثم أقسم بأنه لو لم يعتدل في كلامه بعد ذلك ، سيمنعه من الذهاب إلى المدرسة.. تلك البناية التي بدأت تفسده!

ولم تشارك «أفكار» في زفافها، بينما أخذ «صالح» يتبختر على الحصان بين أصدقائه في كل الأزقة، يسيرون بطول الجسر حتى حدود القرية شمالاً وجنوباً، و«أفكار» جالسة داخل ملابسها البيضاء الموشاة بالقصب والترتر في حجرة الزوجية بمنزل عائلة صالح، بعد أن أرهقوها بنتف كل شعرة بجسدها ، وتقليم حاجبيها اللذين كانا يظللان سحر عينيها. لم تخط سوى عشر خطوات تفصل بين الدارين المتقابلتين.. تنتظر «صالح» حتى يفض بكارتها مع داية القرية!

وكانت دماء «أفكار» التي تلطخ المنديل الأبيض ، مخلوطة بدموع حسرتها على الحلم الذي لم يكتمل .. يشق المنديل عباب الهواء بيد أبيها، ويمرق أمام العيون مؤكداً طهرها، بينما لا يشم أحد عبق أنينها سواه، حيث كان يقف عند الجسر يحاول أن يرفعه من مكانه ويذهب به إليها! في «الصباحية» منعته والدته من الدخول إليها في البداية.. وبعد أن دخلت إليها بصحبة خالاته وعماته، دعته إلى الدخول.

وجد أفكار تجلس القرفصاء على الحصيرة التي تكسو أرض الغرفة ، وقبضتا كفيها تسندان رأسها، بينما تشخص ببصرها بعيداً.. والنساء يلتففن حولها يتندرن، ويطلقن الضحكات الغ نجة إلى جوارها، وبين كل لحظة وأخرى تدفعها واحدة بكفها وهي تداري ابتسامة بطرف طرحتها السوداء.

عندما رأته قفزت نحوه بخفة قط فَزِع، وقالت والدموع تخلط سواد عينيها بالبياض: «بعيد جوي جوي ياخوي»!... وعندما استفسر منها عما تتحدث ، أجابت: «الجسر.. طلعت فوج السطح في الفجرية ، وكان واجف بعيد جوي.. ما اعرفش أنضره من اهنه كمان».

تحول الندى المقطر على خديه إلى نشيج ، حاول أن يكتمه دون جدوى حتى فوجئ بذراعي زميل القطار تحيطه ، وصوته يحمل

كلمات مواساة وكأنه عالم بجوانياته .. استدرك أمره ومر حا دموعه شاكراً الرجل، ثم أسلم جفنيه المكدودين للنوم.

لم تبتعد صورة «أفكار» في آخر مرة رآها في مخيلته .. كانت ممدة على سريرها النحاسي ذي الأ عمدة الأربعة، تطل إليه من بعيد ويلتصق بها مولودها الخامس.. تقول له فرحة: «ولد.. انشد ضهري وانسند»!.. كان يعلم أنها تكره إنجاب الإناث، ومع كل ذكر ينزلق من بين فخذيها تبتسم، وتؤكد أنه عندما يكبر سيذهب إلى الجسر.

الجسر.. الجسر.. ذلك الكائن الذي تعيش من أجله ، وتنجب له ، وترضع صغارها حتى تشتد أعوادهم ويذهبون نحوه، ليعودوا إليها محملين بعبقه ورائحة المياه التي تجري أسفله!

كان عليه أن يركب عربة إلى المدينة التي تتبعها قريته، ومنها يأخذ عربة أخرى تنتمي لأول القرن العشرين ، تسير بصوتها الهادر على الأرض المتعرجة، تصعد ثم تهبط فتصطدم الرؤوس بسقفها .. كان قد نسي تلك الرحلة، وتعجب أنه لا يزال ينتمي إلى كل هذا!
سار بين المزارع متحاشياً الطريق المجاور للجسر .. وبين بابي دار صالح ودار أبيه وقف حائراً، أيهما يقرع ؟! وأين يمكن أن تكون أفكار الآن؟! مرت الدقائق ببطء شديد إلى أن حس م أمره ، واصطدمت قبضة يده بباب صالح.

بددت الطرقات سكون الليل، ففتح له الباب بعد وقت ليس بالقليل شاب يافع، يدعك عينيه بأصابعه، ويسأله متثائباً عمن يكون وماذا يريد؟!.. ظل ساهماً أمامه لا يدري كيف يشرح له أنه خاله .. حتى وقع بصره على امرأة متشحة بالسواد، تحيط عينيها وجانبي فمها تجاعيد غافلتها مبكراً .. أخذ يتبادل معها النظرات والفتى حائر بينهما، إلى أن حسمت المرأة الأمر وارتمت في أحضانه.

كان الجسر هو كل ما أتى من أجله .. فقد بادرها بالسؤال عن استمرار رغبتها في رؤيته .. ارتعشت أطلال ابتسامة على شفتيها بوهن ما لبثت أن تلاشت.. أكد لها أنه لن يتركها هذه المرة دون أن تراه.

وضعت كفها الخشن على كفه وحملت عبء جسدها عليه وهي تنهض.. سارا معاً نحو الباب، والليل يجثم على صحن الدار، لا يشقه سوى غبش ضوء كهربي باهت .. يخطوان بين أجساد أبنائها الخمسة المتراصين على جانبيها .. قدماه ا تضغط ان على الأرض، وعيناها زائغتان يمينا وشمالاً وإلى الأمام، حيث الباب مفتوحاً عن آخره.. كان أبناؤها يبتسمون، فتزيح قدماً للأمام ثم تعاود النظر إليهم لتطمئن على موضع البسمة، فتلحق القدم الأخرى بالأولى.

سارت "أفكار" ملتصقة بجسد أخيها ، الذي يلف ذراعه اليم نى بجسدها ويجمع كفيها بقبضته اليسرى، بينما يخطو رجالها

الخمسة وراءها.. وعندما دلفوا من الممر الضيق الأول شهقت بصوت عال، وتراخى جسدها بين ذراعي أخيها.. توقف الجمع، حتى شدت ظهرها وعاودت المسير.

لكن خطواتها أخذت تتثاقل رويدا رويداً .. وقبل أن تصل إلى نهاية الممر الثاني توقفت وقد علت أنفاسها، وبدأ جسدها يهوي.

أخذ يؤكد لها أنه لم يتبق سوى خطوات معدودات وتصبح عند الجسر.. وكانت تبتسم وتحاول أن تسير .. لكن الجسد أبى وتثاقل على ذراعيه، فاستسلم وأخذ يتهاوى معه حتى تمدد على الأرض.

ظلت أفكار تبتسم وتهز رأسها مؤمنة عل ى كل ما يردده أخوها وأبناؤها من كلمات تشجيع.. لكن أنفاسها العالية أخذت تهدأ قليلاً.. قليلاً.. حتى ذهبت بعيداً.

ليس بعيداً جداً.

ولكن على بعد خطوات معدودات..

هناك عند الجسر!

نهض من على المقعد وتوجه نحو المطبخ ، فتح باب الثلاجة و أخرج زجاجة مياه، رفعها إلى فمه وتجرع محتواها في دفقة واحدة.. خَلَّفَ المطبخ وراءه و دخل إلى الحمام ، أغلق الباب ، وعندما خلع عنه سرواله وجلس على فوهة المرحاض ، انتابته هيستريا ضحك ، فقد أدرك أنه أغلق باب الحمام رغم أنها ماتت ، لم تعد سوى جثة هامدة!

بعد أن أفرغ أمعاءه مما فيها ، خلع عنه ملابسه و خطا نحو البانيو وفتح الدش ليواجه زخات الماء بوجهه ... عاد إلى صالة المنزل... مازالت ملقاة على الأرض ، عيناها شاخصتان محدقتان في وجهه ، فانطلق يحدثها بنبرة المقنع، فلقد عاد إلى نفسه مرة أخرى ، وبدأ يُنَظِّر لكل ما يفعله و يكسبه الشرعية ، فهو الوحيد الذي يتمتع بجميع تفاصيل الرجولة الحقة دون غيره ! أخذ يقول بنبرة الواثق : (عليك أن تدركي أنك فقدت حياتك لأنك لا تستحقين سوى ذلك ، فمثلك لو استمر في الحياة لابد و أن يفكك نسيج أخلاقها منسلاً حبال مبادئنا... لقد حاولت أن أقنعك بالبقاء في عصمة زوجك لكنك أبيت).

قتلها... هذا هو ما حدث ، لا فرار إذن من الهرب أو مواجهة الحقيقة... الحقيقة الوحيدة الماثلة أمامه الآن ، والنافذة عبر عصب عينيه، والملهبة لأوتار قلبه التي مزقتها أو مزقها هو... لا يدري؟! ولكن الواقع الحتمي الذي عليه مجابهته الآن هو التصرف حيال ذلك الحدث التراجيدي، الذي بدأ يفكر بهدوء في كيفية الخروج منه.

في البداية اقترب من الجثمان الجاحظ العينين ... إذن لابد و أنه خنقها، نعم.. فعلى عنقها آثار أصابعه مخلفة زرقة داكنة، بل إن أظفاره نفذت في اللحم مهتكة أنسجته، لأول مرة يكتشف أنه يحمل في طيات نفسه ملامح مجرم ، واحد من هؤلاء الذين يكتب عن جرائمهم محللاً نفسياتهم الخربة ، ويحذر القراء بسطور كالسياط من السماح لهم بالتمادي أكثر لفك أواصر المجتمع!

لأول مرة يدرك أنه قادر على فعل ما اس تنكره بقلمه طوال حياته ، منذ تخرج في كلية الإعلام ودلف داخل أروقة الصحف والمؤسسات، أدرك أنه مثل هؤلاء الذي كان لا يترك مناسبة إلا و ندد بهم ولقبهم بالسرطان المجتمعي، الذي يجب استئصاله دون تردد، لم يكن ليعترف بالنفس وعللها وما تفرضه في لحظات الضعف، فالضعف كما يصفه دائماً في جلسات المقهى ... تخنث!

أخذ يهز رأسه يمنة ويسرة بقوة وهو يغلق جفونه بقدر استطاعته، ربما تغيرت الصورة الثابتة أمام عينيه ، ربما تلاشى ذلك الجسد

الجاثم على أنفاسه بعد زوال الظلمة القسرية ... بعد دقائق حل وثاق جفنيه مريحاً إياهما ببطء ، ليسمح للوهم أن يتبدد ، لكن بعد انفتاح الجفنين عن آخرهما تأكد أنها ماتت بالفعل ، بل انكشف له أمر آخر كان غائباً عن وعيه.... إنه في بيتها!

(عندما حَصلتِ على الطلاق، حاولت إقناعك بالزواج مني حتى أحميك من براثن المجتمع، لكنك تحججت بأنني صديقك وأنك لن تستطيعي أبداً جرح زوجتي الطيبة... أرفضتني من أجل آخر ؟!... أتحبينه؟! وهل يتمتع بما أتمتع أنا به من أخلاق وعفة و رجولة؟! عليك أن تعرفي أنني قتلتك لأحميك منه !... نعم فهو لا يريد سوى الاستمتاع بجسدك و العبث به ، وبمجرد أن يحصل عليك سيعافك فوراً، لذلك قتلتك ! كان لابد أن تموتي قبل أ ن تجلبي العار لأمك المسكينة، وتُحني رقاب رجال عائلتك!... نعم فأنت فاجرة، لذلك كان لابد لي من أن أخلص المجتمع من شرورك)!

اكتشف بعد أن توقف لسانه عن اللهج ، أن دموعه هطلت فبللت قميصه، وأن مخا طه انسال من أنفه ملوثاً شفتيه و عنقه.. نظر نحوها وسألها إن كان لديها مناديل ورقية؟!.. عندما لم تأته الإجابة نهض مفتشاً بنفسه حتى وجدها في أحد الأدراج ، فجفف دموعه وأزال مخاطه، ثم عاد ليجلس أمامها مرة أخرى ليقول بصوت متحد ومفعم بالعزم: (لن أبكي من أجلك مرة أخرى ... لن أحلم بك أو أحفظك في قلبي... لن تكوني الأمل في الحصول على البهجة في هذه الحياة بعد اليوم... أقسم على ذلك... سأحرمك حبي الذي لم

تقدريه أو تفهميه ... لن أسمح لك باللعب بي أو استغلالي ، وسأتركك تغرقين في هوة مشاكلك من دوني)!
الصمت كان بطل اللحظات التي مرت عليه ، وهو يريح رأسه على مرفقيه المسندين على ركبتيه ، حيث غابت هي بأنفاسها إلى حيث لا عودة ، وغاص هو في حياته التي يجب أن يعود إليها دون خسائر... لم تطرأ على ذهنه فكرة التخ لص من الجثمان المسج ى على البلاط، لكن رتق ما تفتق من نسيجه المثالي الذي اعتاد أن يعيش بين ثناياه هو ما شغله!
عليه أن يتصل بوالدتها ليؤكد أن ما حدث كان لمصلحتها، أخذ يملي على نفسه ما سيقوله لها بصوت عال: (فكرت كثيراً قبل أن أكلمك، ولكنني وجدت أنه من الملزم لي أن أخبرك بسلوك ابنتك الشائن مع الرجال ، وأنها لم تستمع لنصحي و استمرت في مسارها السيئ!... لكن لا تقلقي فأنت مثل أمي و شرفك يهمني؛ لذا فقد تدبرت الأمر، ولم يعد هناك سبب للحيرة والخوف بعد الآن)!
التقط سماعة الهاتف المستقر إلى جواره على الطاولة ، وضغط بسبابته على الأزرار الرقمية ، لكن لسانه ألجم تماماً عن التلفظ بكلمة واحدة عندما جاءه صوت ناعس عبر السماعة ، فأغلق الخط مريحاً رأسه على كفيه القابضتين على الهاتف... لم تمر ثوان حتى قرر أن يحدث زوجته، بالتأ كيد ستقتنع عندما يؤكد لها حبه ، وتغلبه على الإغراءات التي كادت أن تفرق بينهما : (حبيبتي عليك أن تعرفي أنه لا توجد امرأة في العا لم يمكنها أن تأخذ مكانك في قلبي، فأنت زوجتي ومعشوقتي الجميلة أبداً ، لذا فقد وجدت أنه

علي أن أخبرك بما فعلته تلك المرأة التي اعتقدت أنها صديقة لأسرتنا، في حين أنها حاولت مراراً أن تغريني وتأخذني منك، ورغم هذه الإغراءات الشديدة التي أوقعتني في براثنها! إلا أنني أهملتها وحاولت أن أثيبها إلى رشدها ، ولما لم تستجب أوقفتها عند حدها وللأبد... الآن نستطيع أن نع يش دون قلق ، أو أي شيء يسبب حزنك وغيرتك)!

قبل أن يتصل برقم منزله اصطدمت عيناه بساعة الحائط ف اكتشف أنها الخامسة صباحاً، عليه أن يترك المكان سريعاً قبل أن يستيقظ الناس وتبدأ حركتهم ، بدأ يلملم كل م ا يمكن أن يتعلق به و هو يدمدم: (الآن سأتركك للندم بع د أن أصبحت مجرد جثة بلا فائدة ، وسأعود لبيتي الفاخر الذي أسسته بعرقي ، ورفضت بغبائك أن يكون لك مثله... لقد أخطأت بحبك، وأعدك بأنني من الغد سأجد من تهواني وتفهمني! للأسف لم يعد بيدي شي ء أفعله لك ... هذه المرة عليك أن تخلصي نفسك بنفسك)! دمدماته، وانشغاله في جمع حاجاته وضبط هيئته استعداداً للرحيل؛ سدت أذنيه عن التقاط صوت الطرقات المتعجلة على الباب، أو الصوت الآمر بالإسراع بفتحه، لذا وهو يتوجه نحوه مغادراً، وجده ينفسخ في وجهه ما طرحه أرضاً! عندما اعتدل ناظراً لأعلى ، تذكر تلك النهايات الاعتيادية للأفلام البوليسية، وغرق في موجة عالية من القهقهات منتظراً كلمة النهاية!

ويبقى طيف لا يرقى إلى مستوى الحلم

هناك... في آخر بقاع الذاكرة تكمن صورة لفتاة صغيرة ت رتدي الأقمشة البوليستر المشجرة ... تلف رأسها بغطاء فاقع اللون ... تتسربل في أرديتها الخالية من الذوق ، وتتكوم على سلالم المدرج الكبير بالدور الرابع من كلية الاقتصاد والعلو م السياسة، تتطلع نحوه في صمت مدركة تماماً أنه لا يراها ولا يعلم أنها هناك ، تنظر إليه في شغف وتحلم بأن يلقي ولو نظرة واحدة إليها ، تجلس راضية بالنظر إليه، حيث لا أمل في أن يعلم بوجودها، حيث يقين بأنه حتى لو عرف أنها تنتمي إلى الوجود لن يعبأ كثيراً ! حيث خجل و فقدان ثقة في كل ما تملكه كفتاة من حقها أن تحب.

يقف هناك ليس على مرمى البصر، بل قريباً جداً، لكنه كنجم ساطع لا يراها أسفل الظلال التي تلفها ، ترضى وتكتفي بالنظر.. يضيع مع الزمن وتتقلب هي بين صفحات الأيام الجارحة، تقابل وتعرف وتحب كثيرين، ويبقى هو كطيف يزورها من وقت لآخر وتراه بعيداً ، تماماً مثلما اعتادت أن يكون.

ربما عرف أنها هناك - اسم بين أسماء كثيرة - ربما منحها جملة أو جملتين ضمن كلام كثير لا يضن به على الآخرين ، ربما دعاها إلى كوب من الشاي لم ينتظر حتى تكم له وهي واقفة معه ، وتركها ومضى! لكنه لم يعلم أبداً أنها امرأة... وتحبه!

تمر السنون ويبقى طيف يزورها من وقت لآخر ، طيف تفرح بسماع أخباره ولا يرقى أبداً إلى مستوى الحلم، لأنها تعلم علم اليقين أنه لن يراها... لن يراها!

ربما شكَّت ذات يوم أنه أخيراً رآها، لكنها شككت ألف مرة في شكِّها هذا! ربما وصل إلى سمعها تلميح خجول منه بالحب، لكنها كذبت أذنيها وشككت في قواها العقلية، وقررت أن تبقيه مثلما بدأ: طيف لا يرقى أبداً إلى مستوى الحلم، حيث لا يمكن أن يراها!

ربما استيقظت ذات يوم على رسالة تليفونية منه:

"معلش يا روح روحي...

أنا مقصر كتير معاكي

يمكن لو الدنيا دي زي الجنة كان الطبيعي إنك في حضني على طول...

بحبك

بامنع نفسي عنك وبامنعك عني..

إنتي الوحيدة اللي مش عايز أجرحك.. بحبك".

ربما تكون قد تسلمت تلك الرسالة ذات صباح... ربما تركت الرسالة على الطاولة إلى جوارها، لتذهب وتفتعل ألف مهمة لتقوم بها، قبل أن تستقر على جملة أو جملتين ترد بهما ع ليه، ربما تكون قد أرسلت له رداً ... لكن الأكيد أنها لم ترسل له الرد الحقيقي على رسالته؛ لأنها بعد أن قامت بألف مهمة مفتعلة ، قررت أنه قد فات الأوان ولم يعد الوجود يحتمل الإجابة الصحيحة!

وتظل تلك الفتاة الجالسة في آخر بقاع الذاكرة، تجلس على سلالم المدرج الكبير بالدور الرابع من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، تنظر إليه، متيقنة أنه لا يراها ولن يراها .. ويبقى طيف لا يرقى إلى الحلم؛ لأنها متأكدة أنه من المستحيل... أن يراها!

فنون الانحناء

انحني... كي لا تبتلعك الأمواج وتتقاذفك الرياح أكثر... نصيحة واحدة لا تتغير أبداً، تتردد في أصداء جسدها المهجور الذي تصفر فيه الريح وتنعق البوم... تلك النصيحة التي لم تأخذ بها أبداً رغم احتياجها الشديد إلى تنفيذها؛ تمليها على نفسها، وتقرر في عتمة لياليها التي لا تملها، أنها ستبدأ الانحناء مع شروق الشمس... لكن خيوط شمسها عكس كل الشموس ، تأبى التناسج في خيوط الانحناء العنكبوتية.

نظرية الانحناء التي تبرز لها جلية تكاد تعميها عن أي ش يء إلاها، تتجسد، تتبلور، تلقي أمامها بالحجج والأسانيد التي تحاصرها وتضيق عليها الخناق، زاعقة في وجهها : أن انحني تفوزي!.. تفوزي بالرجل الذي استدار بوجهه عنك ومضى و لا يزال يمضي، يسحب مع الأيام عبق جسده الراسخ في خلاياك ، وقطرات ماءه المضمخة في أوعيتك، وصوته المستقر في آخر دهاليز أذنيك ، وبريق عينيه الذي انطفأ بعده كل بريق ... يمضي ويسحب منك أنفاسه، ويطوي ظله ظلك في خطواته التي تبعده عنك، لتستقري في النهاية بلا ظل يحمي ظهرك.

تفوزي بكل مستحيلات حياتك، وتشظي الجدران الحائلة بينك وبين أحلامك، تدوسي على رماد السكك المتقاطعة، وتنفذي عبر الجبال الشاهقة... تفوزي بعشق أحبة يغنيك عن حبيب مضى ، غير عابئ بورقك الذي يستحيل للأصفر، ويجف حتى داسته الأقدام فتكسر!

لا تبحثي أكثر عن نفسك التائهة بين أركان حجرتك الضيقة، لا تفتشي في الزوايا بين أوراقك المبعثرة ودفاترك القديمة، فلن تعثري على معناك بين السطور الماضية ، ولن تتعرفي على نفسك في ألبوم صور الطفولة، فملامحك ضاعت، ولم يعد لديك بهاء الماضي... كفي عن بعثرة ذاتك بين أثاث غرفتك، وافتحي الباب الضيق، انفذي عبره إلى العالم ... تجاهلي الهواء الكسول ، وتوقفي عن الحنين لهواء بلادك فهي لا تتذكرك ، تماماً مثل حبيبك !.. حاولي اعتياد خصلات شعرك ساكنة، فلن يداعبها النسيم أو أصابع الحبيب ... واحتفظي برموشك كاملة الجفاف ، فالرطوبة الجاثمة على صدر السماء لن تجفف الدموع العالقة بالأهداب.
توقفي عن التساؤل ، فأنت الآن محاصرة بالمحال التجارية المعبأة بالبضائع... مدي يديك وانزعي الأردية عن "المانيكانات"، واشتري كل الأصباغ لتعيدي رسم وجهك من جديد . دوسي بقدميك على النعال لتسحقي الرمال أكثر ، وتتآلفي مع الأرض الصلبة التي لا تغوص قدماك في وهاد لحمها الحاني، مثلما كانت أرضك.

توهي بين البضائع ، وتمرغي بين الصناديق والأكياس الفارغة ، وعبئي معدتك بصنوف الطعام التي لا تعرفين له ا اسماً أو طعماً ! تجرعي أقداح الجعة واصمدي ، فلا مكان هنا للترنح ! إغفاءة قصيرة وتذروك الرياح وينمحي أثرك تماماً!

أمازلت تلطمين خديك وتشقين ستارك وتقفين منتصبة ؟!... انحني قلت لك!... لا سبيل هنا للانتصاب ، فما عادت الأسهم ترشق صدر السماء، وما عادت عيون النجوم تتلاقى بعيون الأحبة ، ولن يعيرك أحد اهتماماً، فما تبكين عليه لا وجود له . لن يصيبك سوى لزوجة الظلام الذي يلفك بعتمه، وأنت كالبلهاء تدخلين في أربطته الدبقة... انهضي ولكن بانحناء يسير، لن يلحظه أحد، ها هو فجر جديد غير الذي ألفتيه يفتت مسام نوافذك، النور الجديد يعاند أشواك الخشب المتعاشق وينسال، ينسكب، يزحف نحو قدميك المدماتين، يدغدغ دفئه أصابعك الباردة ، ويخطو بجرأة على ساقيك ... فخذيك، يهدئ نبض قلبك المنهوك ، ويربت على رعشة بطنك ، ويحيط خصرك ، ويجفف العرق الذي بلل ما بين ثدييك وما تحت إبطيك.

ها هو يطل على وجهك يز يح جفونك لأعلى، استجيبي له، أفرجي عن البسمة المشنوقة ما بين شفتيك الجافتين ؛ من كثرة اللهاث والركض وراء تهويمات فجر لن يأت ي أبداً! استجمعي ما بقي في أركان نفسك من بريق ، وادفعيه إلى عينيك، وحاولي أن تري الحياة الحقيقية، بعيداً عن أوهام كتبك اللعينة ، وكلمات أمك التي انتهت

منذ قرون! ها هو فجر جديد ينبلج فاستجيبي له وانهضي، لكن... لا تنسي فنون الانحناء ... انحناءة يسيرة لن يلحظها العاثرون والمتعثرون في الدروب المختنقة... انحناءة يسيرة وتفوزين!

داخل الوقت.. خارج الوقت

ربما أدرك الوقت يوماً .. ألمسه بأطراف أناملي وأشعر بمروره كما هو، صلباً لا مران فيه .. ربما أدرك أن أحلامي لا مكان لها في هذا الوقت، ولا يمكن لها أن تتخلل مسامه وتشغل حيزاً داخل جسده العملاق غير المحدود.. قد أحيا فيه بوقائعه الحقيقية، وأتوقف عن محاربته وفرض تهويمات عقلي عليه.

ربما أنسى أن لي حبيباً يعبر خلا ل الوقت الذي لا أستطيع إدراكه ، أو ربما أتمكن من تخليصه بحرابي وسيوفى السحري ة الساكنة داخل تعاويذي القلبية، فأحمله على مهاد نفسي الرقراقة ، وأزرعه داخل دقائقي الملتهبة.. انتظاراً لحضوره.

ربما لا يمكن أبداً أن أفعل ذلك ، وأظل جالسة على أريكة الوقت المقشبة، أرقب نزف عينيه المعلقة بغيري.. عيناه التي تريق ما ءه في جداول امرأة أخرى.

ربما أدرك الوقت يوماً وأحس جراح ه التي تركت آثاراً دامية على نفسي..

فأظل أرقب قطرات دمائي على الأرض ، تاركة أثر عبوري خلال هذه الساعات الطويلة ، وأحس بشاعة اللون الأحمر القاني فألمس لزوجته وأستشعر سخونته.. وأبكي.. ربما أبكي.. فتختلط دموعي مع دمائي، لكنها لن تبقى طازجة أبداً، فشمس الوقت الحارقة ستجفف كل شيء ، ويفقد كل ما سال مني بهاء حزنه، ليصبح قشوراً تطيرها رياح الوقت بلا رحمة.

ربما أمد يدي لأفتح ستائر وقتي عن آخرها ، وأعتاد إضاءة مسلطة على عيني، فأفتحهما عن آخرهما لرؤية الحقيقة .. وأتنفس بعيداً عن المخلوقات المسحورة التي تجالسني، وأعتاد المسوخ الساكنة داخل الوقت الموجود خارجي.

ربما أد ركك يا وقت وينتهي وقتي .. فأتجاهل المرآة وتلك العطور والمساحيق والملابس المبهرة ، التي أسكن داخلها عندما أتهيأ لرؤية حبيبي.. وأتذكر تلك الخيبات العظيمة التي تلاحقني دوماً بعد كل لقاء لي معه !.. وربما حينها أذهب إليه بكل هزائمي وخيباتي ، مستعدة لإضافة انسحاق جدي لذاتي. ربما لو أدركتك يا وقت، أدرك أيضاً أنني لا أحبه وأنه لن يكون حبيباً لي أبداً، فأكف عن الارتعاش في حضوره ، وأثبت خلاياي على نظام "كومبيوتري" رديء! أبتسم وأدمع به بمجرد الضغط على زر الدخول .. ربما أحبني بهذه الطريقة فأنتقم منه وأدير له ظهري.

يا أيها ا لوقت، لماذا ترفض محاولاتي للانضمام إلى حزبك، مع أن أوراق اعتمادي مستوفاة وصورتي واضحة .. وختم النسر يذيل المستندات الخاصة بي!.. أعلم أنني لا أعي تفاصيلك الآن، لكن قد أعيها عندما أهوي إلى عالمك.

يا وقت حاول أن تجد لي مكاناً بين خطوط إشاراتك، فأنا في عزلتي، تخنقني جنيات زماني ، وتدق نبضات جهازي الدوري ضلوعي، وتتراشق سهام برأسي ساحبة روحي إلى حيث لا يمكنني اللحاق بها، ويفزعني حبيبي بفتاته الذي لا أنال غيره.. وتناديني شياطين معششة في أركان حجرتي.

يا وقت .. ربما أدركك فتزداد كثافة جلدي ، ولا أعبأ بنتو ءات حجري الرحى التي ؤرقني دورانها على جسدي .. وتتصلب أنفاسي فلا يتهدج صوتي عندما تنبس شفتاي باسم حبيبي .. ويصبح هيناً إلقاؤه في أقرب علبة تصادفني للقمامة!

هنا... فقط!

فقط.. فوق هذا المستطيل المتسع لجسديهما... تشعر بالتحقق، تكتمل ذاتها عدد الدقائ ق التي تمر عليها وهي بين ذراعيه .. شفتاها تعبثان بشفتيه، تعب من رضابه قدر ما يسد حاجة خلاياها العطشى... عيناها تمسحان خريطة جسده.. تتلمس بأصابعها كل ما وقعت عليه تلك العينان.. تلتصق به أكثر.. تضغط جسدها بجسده خائفة من الغياب .. تتلوى فوقه في محاولة للتسرب عبر مسامه لتبقى أبداً في الداخل... هناك.. عنده وحده حيث تكتمل وتتحقق نبوءتها.. نبوءة الخلود في لحظة عشق ممت دة، لا تنقطع أبداً ولا يفسدها سبب.. نبوءة الفردوس، الذي يرتاح على كفيه وبين ذراعيه وعبر مسامه وفي نظرة عينيه!

فقط... فوق هذا المستطيل المتسع لجسديهما ، تخلق إبداعها المستحيل والمتأبي في كل الأوقات ، إلا داخل تيار زمنه .. تشكل الحروف اللؤلؤية كلاماً أكثر تلألؤاً، فتنطق شعراً، وتتنهد أهازيج فرح، وتصرخ دهشةً ... تمتد البسط أمامها لتنسج روحاً كونية تضم المتعبين، والمهزومين، والفقراء، والمطعونين غدراً، داخل نسيجها المرتعش رقصاً.. تنفض عن الحزانى الألم ، وتبثهم خلقها المتكامل وهو داخلها.

فقط.. فوق هذا المستطيل المتسع لجسديهما ، تصدق أن وجودها على الأرض له معنى ، وأن حياتها ليست عبثاً ... أن مرورها على

الأرض لن يكون عبوراً بلا ملامح، وأنها أهم امرأة في التاريخ الذي ولى، وفي الأيام الفارة، وفي المستقبل الآتي!

فقط.. فوق هذا المستطيل المتسع لجسديهما ، تشعر بالشبع وينتهي جوعها الأبدي ، تشعر بالرضا المفقود، وتتكون ملامح للمفردات التي تعيش بينها ، فتكتشف أن لها منزلاً وليست بلا مأوى، وأنها تمتلك الكثير من الملابس وليست عارية تنهشها العيون، وأنها مدفأة لا ينخر البرد عظامها ، وأنها شبعانة لا ينهش الجوع معدتها.

فقط.. فوق هذا المستطيل المتسع لجسديهما ، تلحظ جسدها وتكتشف ملامحه، تسعد بنهديها وخصرها وساقيها وذراعيها ووجهها وخصلات شعرها!

فقط.. فوق هذا المستطيل المتسع لجسديهما ، تشعر أنها .. أنثـــــى!

عيد ميلادي

يأتي اليوم بلا أجنحة للطيران ... يأتي وأبقى حاطة على أرض أحلامي... تتناثر من حولي، تلفظ أنفاسها، تتسلل من بين أصابعها الحياة. وأنا مشلولة تماماً، مربعة الساقين، مرفوعة ذراعاي على غير هدىً، بينما كفي تهوم في الفضاء، ت حاول البحث عن قشة لتتعلق بها... لكنها لا تجد سوى الفراغ.

يأتي اليوم، ويحتشد الجميع ليشارك في حساب ما ضاع... يتمنى لي أوقاتاً طويلة قادمة .. أظنها أيضاً ضائعة !... وأنا أسبح خارج جسدي، أتركه لهم للاحتفال، بينما أشاهدهم من مجلسي في الأعلى وأنا في وضع القرفصاء ! عاقدة ذراعي على محيط صد ري الذي ضاق منذ زمن بعيد، يتأرجح ج ذعي يميناً ويساراً كبندول ساعة تائه عبر موجات الزمن، بينما تتساقط قطرات الفقد من عيني فلا تصل إليهم!

يستمرون في ا لاحتفال... دون أن يدركوا ... أن ما لديهم ... ليس سوى جسد فارغ!

لنعيش "دون كيشوت"

الرؤية "النسائية" التي تقدمها أمنية طلعت ليست قائمة على أساس الجنس فقط، بمعنى أنها لا ترى النساء من حيث كونهن نساء فقط، بل إن رؤيتها للنساء لا تتجاهل ارتباط وضعهن بالطبقة والعرف والمجتمع . كما تطرح بقوة ارتباط النسائي بالسياسي ، لتثبت في النهاية أن الخاص والعام ليسا منفصلين بأي حال . وأن النضال في العالم يبقى وهمياً طالما بقيت أزماتنا شخصية؛ فهو نضال "دون كيشوت"، نضال بسيف خشبي! "مذكرات دونا كيشوتة" عنوان يعبر عن رؤية متكاملة في المجموعة كلها، "دونا كيشوتة" تحاول حفر مساحة خاصة بها، في عالم يموج بطواحين الهواء!

د.شيرين أبو النجا

الكاتبة في سطور

أمنية طلعت السيد محمد وتشتهر باسم أمنية طلعت. حصلت على بكاريوس كلية الإعلام قسم الصحافة من جامعة القاهرة عام 1994. اشتغلت في العديد من المؤسسات الصحفية والإعلامية المصرية والعربية، كان أشهرها مؤسسة أخبار اليوم ومؤسسة البيان للصحافة والنشر في دبي ومؤسسة تلفزيون الشرق الأوسط MBC. عضوة بنقابة الصحفيين واتحاد الكتاب المصريين. حصلت على جائزة التفوق الصحفي الأولى من نقابة الصحفيين عام 1999، عن أفضل تغطية فنية وذلك عن موضوع " تلحين القرآن" والذي أثار ضجة في الشارع المصري آنذاك . تميزت بقلمها الجريء في تناول الموضوعات، فكانت أول من سافر إلى سوريا لإجراء حوار مع الأديب السوري حيدر حيدر بعد أزمة رواية " وليمة لأعشاب البحر " واستخدمت النيابة حوارها الذي نشر في أخبار الأ دب كمرجع لها أثناء التحقيقات التي جرت آنذاك اشتهرت بمقالاتها الجريئة والصادمة في موضوع المرأة وموضوع الحريات الدينية والعقائدية ,وذلك من خلال جريدة البديل المصرية وموقع الحوار المتمدن اليساري . تكتب الأدب ولديها مجموعة قصصية بعنوان " مذكرات دونا كيشوتا"، ورواية بعنوان "طعم الأيام".

الفهرس:

1 -إهداء الطبعة الثانية
2 -إهداء الطبعة الأولى
3 -مذكرات دونا كيشوتة
4 -امرأة حاولت
5 -اسم على جدار
6 -فوات الأوان
7 -ويعتليها جسد ميت
8 -سيرينادا الطفولة
9 -هكذا هي اليوم
10 - الجسر
11 - نهايات اعتيادية
12 - ويبقى طيف لا يرقى إلى مستوى الحلم
13 - فنون الانحناء
14 - داخل الوقت.. خارج الوقت
15 - هنا... فقط
16 - عيد ميلادي
17 - الناقدة الدكتورة شريين أبو النجا
18 - الكاتبة في سطور